

أوجاي موري
الإوزة البرية
رواية
«رواية ساحرة»
جريدة نويه تسوريشر تسايتونج

الإوزة البرية

أوجاي موري

الإوزة البرية

ترجمة

ميسرة عفيفي



لمزيد من المعلومات عن الكرمة : facebook.com/alkarmabooks

العنوان الأصلي : 雁, Gan

أوجاي موري، 1911

موري، أوجاي

الإوزة البرية: رواية / أوجاي موري؛ ترجمها عن اليابانية ميسرة عفيفي – القاهرة: الكرمة للنشر، 2017 .

تدمك : 9789776467835

1 – القصص اليابانية .

أ – عفيفي، ميسرة (مترجم).

ب – العنوان .

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: 19687 / 2017

2 4 6 8 10 9 7 5 3 1

تصميم الغلاف: أحمد الصباغ

صورة الغلاف: «هيديكو تاكامينيه» و«هيروشي أكوتاجاوا» في فيلم «جان» المقتبس عن الرواية،

إخراج «شيرو تويودا»، 1953

الفصل الأول

هذه حكاية قديمة. وأتذكر بالصدفة أن أحداثها وقعت في عام 1880. وسبب تذكري العام بهذا الوضوح، أنني وقتها كنت أسكن في غرفة مجاورة لغرفة بطل هذه القصة، لا يفصلني عنه إلا حائط واحد، في مسكن يُسمى «مسكن كاميجو» كان يواجه تمامًا البوابة الحديدية لجامعة «طوكيو». وكنت أحد الناجين من الحريق الذي أحرق «مسكن كاميجو» في عام 1881. ولأنني أذكر أن أحداث هذه الرواية حدثت في العام السابق لذلك الحريق .

كان «مسكن كاميجو» يسكنه في الأغلب طلبة كلية الطب بالجامعة، وأحيانًا، يسكن فيه كذلك عدد من المرضى الذين يترددون على المستشفى التعليمي التابع للجامعة. وغالبًا ما يوجد في أي مبنى ساكنٌ يعامَل معاملة خاصة، ويكون هذا الساكن في حالة مادية جيدة، وتجده حصيفًا متفهمًا تمامًا للأمور، ولا بد أن يتحدث إلى مالكة المسكن التي تجلس قبالة مجمرة الحطب المربعة، عندما يمر من الممر الأمامي. وأحيانًا يجلس القرفصاء في الجهة المقابلة من المجمرة، ويتبادل معها أحاديث المجتمع. وعندما يقيم حفلًا صاخبًا به شراب في غرفته، يبدو كأنه أناني، فيجعلها تعد «المزَّة» ويظهر كأنه متحامل عليها، ولكنه في الواقع يعمل على أن تستفيد ماديًّا من ذلك. يقابَل الرجل الذي له مثل هذه الصفات أولًا بالاحترام، والعادة أنه يستغل ذلك ليجعل المسكن طوع بنانه بالترهيب والترغيب. ولكن جاري في «مسكن كاميجو» الذي يعامل معاملة خاصة، كان يختلف عن ذلك في كل شيء .

كان جاري هذا طالبًا يُسمى «أوكادا»، وهو أصغر مني بعام دراسي، فلم يكن يتبقى له كثير على التخرج. ومن أجل شرح صفات «أوكادا»، يجب البدء بشرح أبرز صفاته وأوضحها، وهي أنه جميل الوجه. ولكن جمال وجهه لا يعني أنه شاحب اللون ضعيف البنية، بل هو قوي الجسم، تبدو حمرة الدم في وجهه دليلاً على أن صحته جيدة. لم أرَ في حياتي كلها تقريبًا، رجلاً له مثل ذلك الوجه. وإذا طُلب مني على الرغم من ذلك ذكر شبيه له، فلقد صادقت بعد حدوث هذه القصة بوقت طويل «بيزان كاواكامي» في شبابه. نعم ذلك الأديب، «كاواكامي»، الذي انتهت حياته نهاية مأساوية بعد أن أصبح فقيراً معدمًا. كان «كاواكامي» هذا يشبه «أوكادا» قليلاً في جمال الوجه. ولكن «أوكادا»، الذي كان لاعبًا في فريق التجديف، يتفوق بدرجة كبيرة على «كاواكامي» من حيث قوة الجسم .

يعطي جمال الوجه ميزة لصاحبه بشكل ما، ولكن لا يكفيه ذلك لنيل الحظوة في المسكن. حسنًا، ماذا عن صفاته وأفعاله؟ أعتقد أن عددًا قليلاً جدًّا من الرجال كانوا يحافظون على حياة طلابية متوازنة للدرجة التي كان عليها «أوكادا» وقتها. إذ لم يكن من الطلاب المحبين للتحصيل الذين يتنافسون في امتحانات كل فصل دراسي للحصول على أعلى الدرجات من أجل نيل منحة التفوق. لكنه كان يجتهد فقط في عمل ما يجب عمله، ويتجنب أن يقع ترتيبه في النصف الأسفل من قائمة فصله الدراسي أثناء النتيجة. وهو بالتأكيد يلعب وقت اللعب. فهو يخرج بعد تناول وجبة العشاء للتريض بشكل صارم، ويرجع للسكن قبل العاشرة بلا أي تأخير. وأيام الآحاد يذهب إما إلى

التجديف، أو إلى التنزه عندما لا يكون هناك تجديف. وباستثناء ذهابه للمبيت في معسكر تدريبي قبل بطولات التجديف مع زملائه في حي «موكوجيما»، أو عودته في عطلة الصيف إلى بلدته، كانت ساعات وجوده داخل الغرفة وخارجها منضبطة لا تتغير ولا تختل. وكل مَن ينسى من الطلاب ضبط ساعته على طلقة مدفع الظهيرة، يذهب إلى غرفة «أوكادا» لضبطها. وكثيراً ما يتم ضبط ساعة مكتب «مسكن كاميجو» وإصلاحها على ساعة جيب «أوكادا». كلما شاهد المحيطون به أفعاله، زاد لديهم شعور أن ذلك الرجل يجب الوثوق به. وقد بدأت مالكة «مسكن كاميجو» تمدح «أوكادا» الذي لا يجامل، ولا يسرف في استخدام المال، اعتماداً على تلك الثقة. ولا داعي للقول إن حقيقة دفعه للإيجار الشهري بانتظام ومن دون تأخير ساعدت على أخذها ذلك الموقف. وكثيراً ما تجري على لسانها كلمة :

ـ انظروا إلى السيد «أوكادا »!

ويوجد من الطلبة من يتوقع ما ستقول فيسبقها بالقول :

ـ مهما فعلت فشخص مثلي لن يصل أبدًا ليكون مثل «أوكادا ».

وبهذا الشكل أصبح «أوكادا» نوعًا ما، يمثل الساكن المثالي لـ«مسكن كاميجو ».

كان مسار التريض اليومي الذي يقوم به «أوكادا» محددًا في الأغلب. يهبط منحدر «موئنزاكا» شبه المهجور، ويدور حول الجهة الشمالية من

بركة «شينوبازو» حيث تصب مياه نهر «أيسومه» التي تشبه سواد أسنان السيدات (*) ، ثم يصعد التل عند حدائق «أوينو». بعد ذلك يمر من طريق «هيروكوجي»، الذي يقع به مطعما «ماتسوجن» و«جان نابيه» الشهيران، ثم يمر بحي «ناكاتشو» الضيق والمزدحم بالناس، بعدها يمر خلال معبد «يوشيما»، ويعود للمسكن منعطفًا عند زاوية معبد «كاراتاتشي» الكئيب. ولكنه في بعض الأوقات يدور يمينًا عند حي «ناكاتشو» ويعود للمسكن عن طريق منحدر «موئنزاكا». كان هذا هو أحد المسارات لتريضه. وهناك مسار آخر هو أن يخترق الجامعة ويخرج من البوابة الحمراء. ولكنه في بعض الأحيان يدخل الجامعة من بوابة «ناجايامون» المخصصة للمرضى في مستشفى الجامعة، لأن البوابة الحديدية للجامعة تغلق مبكرًا. وأُزيلت بوابة «ناجايامون» تلك فيما بعد، وتقوم مكانها حاليًّا تلك البوابة السوداء الجديدة المواجهة لحي «هاروكيتشو». بعد أن يخترق الجامعة، يخرج من بوابتها الحمراء ثم يسير في شارع «هونجو» فيمر من أمام محل الحلوى اليابانية الذي يقدم عرضًا حيًّا لطريقة عملها أمام الناس، ويدخل بعد ذلك إلى حرم معبد «كاندا» الكبير. ثم ينزل مارًّا بجسر «مجانه» الذي كان أيامها جديدًا تمامًا، ويسير قليلاً في منطقة «ياناجيهارا» حيث البيوت المبنية على جانب واحد في مواجهة النهر. بعد ذلك يعود سالكًا أحد الطرق الضيقة من الناحية الغربية لطريق «أوناريميتشي»، ليصل كما هو متوقع أمام معبد «كاراتاتشي». كان هذا هو المسار الآخر. وهو لا يسير في مسار يختلف عنهما إلا فيما ندر .

وإذا سألنا: «ماذا يفعل «أوكادا» أثناء تريضه هذا؟»، الإجابة: «لا شيء»،

اللهم إلا النظر قليلاً هنا وهناك عند مكتبات الكتب القديمة. لا يتبقى الآن من مكتبات الكتب القديمة تلك في شارع «هيروكوجي» بمنطقة «أوينو»، وفي منطقة «ناكاتشو»، إلا مكتبتان أو ثلاث. وما زالت مكتبات شارع «أوناريميتشي» كما كانت وقتها. أما شارع «ياناجيهارا» فقد اختفت منه تلك المكتبات تمامًا. وغيرت كل مكتبات شارع «هونجو» أماكنها، وكذلك تغير مالكوها. وربما كان السبب في أن «أوكادا» لا يسير يمينًا عندما يخرج من البوابة الحمراء للجامعة إلا فيما ندر، هو أن منطقة «موريكاواتشو» تلك ذات طرقات ضيقة للغاية، إلا أن هناك سببًا آخر، هو أن تلك المنطقة وقتها لم تكن بها مكتبات للكتب القديمة إلا مكتبة واحدة فقط، في الجهة الغربية منها .

وكان السبب في وقوف «أوكادا» عند مكتبات الكتب القديمة ليلقي نظرة عليها هو ما يمكن أن نطلق عليه بلغة اليوم أنه كان «محبًّا للأدب». ولكن وقتها لم تكن الروايات والمسرحيات الحديثة قد صدرت بعد، أما فيما يتعلق بالشعر الغنائي فلم تكن أشعار «الواكا» للشاعر «تيكن» ولا أشعار «الهايكو» للشاعر «شيكي» قد ظهرت أيضًا. لذلك كان الجميع يقرأ مجلتي «كاجتسوشينشي» التي كانت تطبع على ورق صيني، و«كيرين إيشي» التي كانت تطبع على ورق أبيض. لدرجة أن الجميع كان يعتقد أن قصص «كاي نان» و«موكوه» الشعرية ذات حس أدبي رفيع. ما زلت أتذكر ذلك لأنني كنت أواظب على قراءة مجلة «كاجتسوشينشي». ولقد نُشرت الروايات الغربية المترجمة لأول مرة في هاتين المجلتين. وأتذكر أن «تاكاهيرا كاندا» هو الذي ترجم حكاية طالب البعثة في إحدى الجامعات الغربية الذي قُتل أثناء عودته إلى

الوطن، ونشرها في لغة مبسطة قريبة من لغة العامة. وعلى ما أتذكر كانت تلك هي أول ما قرأته من الأدب الغربي. ولأن الوضع كان على هذه الحال، لذا فهواية «أوكادا» الأدبية كانت لا تزيد على الاستمتاع بقراءة كتابات علماء اللغة الذين يكتبون عن الجديد في المجتمع وأشعارهم .

ولأنني لم أكن ودودًا في تعاملي مع الناس، فلم أكن لأتحدث إلى الطلبة الآخرين الذين أقابلهم كثيراً في حرم الجامعة، ما لم يكن هناك سبب يدعوني إلى ذلك. وحتى إذا قابلت طالبًا يسكن معي في المسكن نفسه، فكان من النادر أن ألقي عليه التحية رافعًا قبعتي له. ولكن مكتبات الكتب القديمة كانت حلقة الوصل التي جعلتني و«أوكادا» صديقين على نحو ما. فعندما كنت أخرج للتريض، لم يكن مساري محددًا بتلك الدقة مثل «أوكادا»، ولكنني كنت، بقدمي القويتين، أجوب مناطق «هونجو» و«شيتايا» و«كاندا» طولاً وعرضًا، وعندما أصادف مكتبة للكتب القديمة أقف وألقي نظرة عليها. لذلك فكثيراً ما كنت أصادف «أوكادا» أمام تلك المكتبات. وكانت بداية محادثتنا بشكل ودي عندما قال أحدنا للآخر :

ـ ألا تلاحظ أننا نتقابل كثيراً أمام مكتبات الكتب القديمة؟

كانت توجد في تلك الأيام مكتبة تعرض الكتب القديمة على حافة خشبية على شكل الخطّاف في الركن عند مهبط المنحدر أمام معبد «كاندا». وجدت في إحدى المرات في تلك المكتبة رواية «كينبيباي»

من الأدب الصيني، فسألت صاحب المكتبة عن السعر فقال :

ـ سبعة ينَّات .

وعندما طلبت منه أن يخفض السعر لخمسة ينَّات قال :

ـ منذ قليل عرض السيد «أوكادا» ستة ينَّات لشرائها، ولكنني رفضت ذلك .

وصادف أن كان معي وقتها ما يكفي، فدفعت للرجل ما طلب واقتنيت الكتاب. وعندما قابلت «أوكادا» بعد مرور يومين أو ثلاثة، بادرني هو بالقول :

ـ أنت شخص فظيع. تشتري الكتاب الذي كنت أبحث عنه، ووجدته أخيراً !

ـ نعم، نعم، لقد قال لي بائع الكتب إنه لم يوافق على ما عرضته من ثمن. ولكن إذا كنت تريده سأتنازل لك عنه .

ـ ماذا تقول؟ نحن جيران ويكفي أن تعيره لي بعد أن تنتهي من قراءته .

وافقت على ذلك بكل سرور. وبهذا الشكل، أصبحنا نتبادل الزيارة في المسكن بعد أن كنا، أنا و«أوكادا»، نسكن لفترة طويلة متجاورين لا يفصل بيننا إلا حائط واحد من دون أن نتعارف .

الفصل الثاني

في تلك الأيام كان قصر «إيواساكي»، كما هو حاليًّا، في الجهة الجنوبية من منحدر «موئنزاكا»، ولكنه لم يكن محاطًا بذلك السور من الطمي عظيم الارتفاع، بل كان يحيط بالقصر وقتها سور قذر من الحجر، وتظهر نباتات السرخس وذنب الخيل من بين فراغات الأحجار ذات العفن الأخضر. لم أكن أدري، وإلى اليوم لا أدري، لأنه لم يتسنَّ لي الدخول إلى قصر «إيواساكي»، إن كانت الأرض خلف ذلك السور مستوية أم على شكل تلة صغيرة. ولكن على كل الأحوال كانت النباتات، وقتها، تنتشر خلف السور كما يحلو لها، وجذورها ظاهرة للرائح والغادي، وكان من النادر أن تُقتلع الأعشاب التي تنمو حول تلك الجذور .

وتتراص في الجانب الشمالي من المنحدر عدة بيوت صغيرة المساحة، أفضلها من حيث الشكل العام بيوت العائلات التي لا تمارس التجارة، وكل منها محاط بسور من الألواح، أما الباقي فعبارة عن بيوت عمال الحرَف اليدوية وورشهم. أما المحلات فلم يكن يوجد منها إلا محل تبغ وآخر لأدوات المطبخ. وكان من بين ما يلفت أنظار المارة، منزل سيدة تعلِّم الحياكة، تجتمع عندها في النهار فتيات كثيرات يعملن خلف نافذة شبكية. وعندما يكون الطقس معتدلًا، والنافذة مفتوحة، ونمر نحن الطلاب، ترفع البنات، اللائي لا يتوقفن عن الحديث دائمًا، وجوههن جميعًا وينظرن ناحية الطالب المار أمام النافذة. ثم بعد ذلك يواصلن الحديث ثانية أو يضحكن .

بجوار ذلك المنزل، كان هناك منزل آخر، بابه دائمًا نظيف جميل، وعلاوة على ذلك كانت أرضية المدخل مصنوعة من صخور الجرانيت. كنت أرى أوقات مروري مساءً نافورة ماء في الحديقة. ويكون الباب مغلقًا في برد الشتاء، ولكن حتى في حر الصيف تكون ستائر الخيزران متدلية. ويبرز هدوء ذلك المنزل أكثر وأكثر بسبب ضجيج منزل معلمة الحياكة المجاور له .

في شهر سبتمبر من العام الذي حدثت فيه هذه القصة، وبعد عودة «أوكادا» من بلدته مباشرة، خرج بعد تناول العشاء في تريضه المعتاد، وعند هبوطه منحدر «موئنزاكا» متسكعًا، وبعد أن تخطى الموقع المؤقت لغرفة تشريح الجثث في القصر القديم لحاكم إقطاعية «كاشو»، شاهد «أوكادا» بالصدفة امرأة عائدة من الحمام الشعبي تدخل المنزل الهادئ المجاور لمنزل معلمة الحياكة. كان الطقس قد صار تقريبًا خريفيًّا، وبالتالي لم يعد الناس بحاجة إلى الخروج من منازلهم هربًا من الحر. عندما سلك «أوكادا» طريق المنحدر الخالي تمامًا في ذلك الوقت من المارة، كانت المرأة قد وصلت إلى بوابة المنزل الهادئ، وكانت على وشك فتح الباب، ولكن عندما سمعت صوت قبقاب «أوكادا» أوقفت فجأة يدها التي امتدت إلى الباب، ونظرت خلفها لتتلاقى عيناها مع عيني «أوكادا ».

لم يأخذ «أوكادا» انطباعًا عميقًا عن تلك المرأة التي كانت ترتدي «كيمونو» صيفيًّا ذا لون رمادي وتربطه بحزام مزدوج من الساتان الأسود والحرير البني، وتحمل بخمول في يدها اليسرى الرقيقة سلة مصنوعة

من الخيزران الرفيع، بها أدوات الاستحمام من منشفة وصابون ولوف وإسفنج، وتنظر إلى الخلف ويدها اليمنى كما هي موضوعة على الباب. ولكن توقفت عيناه على ربطة شعرها الرفيعة على الجانبين فيما يشبه أجنحة الزيز. أما وجهها فكان طويلاً دقيقًا به أنف حاد، ويعطي ذلك الوجه المسطح من الجبين وحتى الفك، شعورًا ما بالوحدة. ولأن «أوكادا» لم يتوقف أمام تلك المرأة إلا لبرهة من الوقت، فقد نسي أمرها تمامًا عندما انتهى من هبوط منحدر «موئنزاكا».

ولكن عندما خرج «أوكادا» للتريض بعد حوالي يومين، متوجهًا ناحية منحدر «موئنزاكا»، وعندما اقترب من ذلك البيت ذي البوابة الشبكية، طفت فجأة ذكرى المرأة العائدة من الحمام من أعماق الذاكرة إلى سطح الوعي، فنظر قليلاً إلى ذلك البيت. توجد نافذة علوية مثبتة بها أعواد من الخيزران رأسيًا، ويلف بها أفقيًا خشب رفيع مبريٌّ على نحو درجتين، وكل هذا محاط بنبات اللبلاب. ستائر تلك النافذة مفتوحة بمقدار قدم، وتظهر من الفتحة مزهرية بها نبات الزنبق الياباني، وداخل المزهرية قشر بيض ملقى. ولأنه كان قد ظل يشاهد ذلك بانتباه لعدة دقائق فقد خفت سرعة خطواته، وأتيح له عدد من الثواني لكي يصل لواجهة البيت تمامًا .

ثم عندما وصل لواجهة البيت، برز فجأة وجه أبيض، ينظر إليه مبتسمًا، من خلف مزهرية الزنبق التي كانت مظلمة في لون رمادي .

منذ ذلك الحين وكلما خرج «أوكادا» للتريض، ومر من أمام ذلك

البيت، كان من النادر ألا يشاهد وجه تلك المرأة. وأحيانًا تأتي تلك المرأة وتقتحم خيال «أوكادا»، وتدريجيًّا صارت تختال وكأنها تمتلك ذلك الخيال. عندها يلح عليه سؤال: تُرى هل تنتظر المرأة مروره أم أنها تنظر ناحية الخارج بلا أي معنى وبالصدفة يتلاقى ذلك الوجه مع وجهه؟ عندها بدأ يرجع بذاكرته إلى ما قبل اليوم الذي رأى فيه المرأة عائدة من الحمام، هل حدث أن رأى وجه امرأة تنظر من نافذة ذلك البيت؟ ولكنه مهما حاول أن يشحذ ذاكرته، لا يجد إلا أن البيت المجاور لبيت معلمة الحياكة، أكثر المنازل ضجيجًا في المنطقة المطلة على النهر، هو دائمًا موحش وجميل ونظيف، ولا شيء آخر في ذاكرته. بالتأكيد، لقد تساءل في نفسه عمن يسكن ذلك المنزل. ولكن حتى ذلك السؤال لم يصل إلى إجابة عنه. فالنوافذ دائمًا تكون مغلقة، أو تكون ستائر الخيزران منسدلة، وتخفي خلفها سكونًا مطبقًا. وعند التفكير في ذلك، توصل «أوكادا» إلى خلاصة أن تلك المرأة مؤخرًا تفتح النافذة وتنتبه إلى الخارج انتظارًا لمروره .

وفي كل مرة يمر فيها تتلاقى نظراتهما، وأثناء تفكيره في هذا الأمر، شعر «أوكادا» تدريجيًّا بالألفة تجاه «امرأة النافذة». وبعد مرور أسبوعين، وعندما كان «أوكادا» مارًّا أمام تلك النافذة في مساء أحد الأيام، قام بلا وعي بخلع قبعته والانحناء لتحية المرأة . عندها تحول وجهها الأبيض الضعيف فورًا إلى اللون الأحمر، وتحول الوجه من ابتسامة الوحدة إلى ابتسامة مشرقة. وصار بعد ذلك «أوكادا» ينحني لتحية «امرأة النافذة» كلما مر من هناك .

الفصل الثالث

كان «أوكادا» يحب قصص الصين التاريخية في مجلدات «جوشوشينشي»، وخاصة سيرة البطل العسكري «دايتيتسوي»، لدرجة أنه يستطيع تلاوتها عن ظهر قلب. وكانت لديه رغبة قوية منذ زمن طويل في ممارسة فنون القتال. ولكن لأن الفرصة لم تتح لذلك، فقد ظل غير ممارس لأي من تلك الفنون. ولكنه في السنين الأخيرة بدأ ممارسة رياضة التجديف، وتحمس لها بشدة، لدرجة أنه أصبح لاعبًا فيها بعد أن شجعه زملاؤه، وربما كان السبب في ذلك هو تطور رغبة «أوكادا» تلك. يعشق «أوكادا» في قصص «جوشوشينشي» قصة أخرى، وهي سيرة حياة «شاوتشين». كان نموذج المرأة المذكور في تلك السيرة يجذب «أوكادا» بشدة: المرأة التي تجعل الجمال مقدَّمًا على الحياة نفسها. المرأة التي تضع بكل هدوء مساحيق التجميل على وجهها لاستقبال ملك الموت الذي ينتظرها خارج الغرفة. فهو يشعر أن المرأة يجب أن تكرس حياتها لأن تكون جميلة ومحبوبة. ومهما كانت بيئة حياتها، فيجب عليها أن تحافظ على الحب والجمال. لا بد أنه تأثر، من دون أن يدري، بقراءته اليومية لأشعار الحب والغرام، مثل كتابات عباقرة عصري «مينج» و«شينج» في الصين الذين اتصفوا بالعاطفية والقدَرية .

على الرغم من مرور فترة طويلة على اعتياد «أوكادا» الانحناء لتحية «امرأة النافذة»، فإنه لم يحاول مطلقًا أن يبحث عن أصلها وحياتها. بالطبع فهم من خلال منظر البيت ومظهر المرأة نفسها أنها على الأرجح

محظية ثري في منزل منفصل خاص بها. ولكن لم يزعجه ذلك. كذلك هو لا يعرف اسمها، ولكنه لم يبذل جهدًا لكي يعرفه. فكر مرة أنه لو نظر إلى اللوحة على مدخل المنزل لعرف الاسم، ولكنه كان يخجل أن يفعل ذلك أمام المرأة وهي تطل من النافذة، وعندما لا تكون موجودة كان يستحي من أن يراه أحد الجيران أو المارة. وبهذا الشكل ظل على حاله من دون أن يرى الحروف المكتوبة على لوحة الاسم الخشبية الصغيرة المختفية وراء ظل إفريز السقف .

الفصل الرابع

في الواقع، لقد سمعت تفاصيل قصة حياة «امرأة النافذة» بعد انتهاء أحداث هذه القصة التي يتحتم عليَّ أن أجعل «أوكادا» بطلًا لها. ولذا من المفيد أن أكتب هنا عجالة سريعة لملخصها .

تبدأ الأحداث وقتما كانت كلية الطب التابعة لجامعة «طوكيو» لا تزال موجودة في منطقة «شيتايا». كان مبنى الحراسة القديم التابع للحاكم الإقطاعي «طودو» قد تحول إلى مسكن للطلبة. وفي أماكن متفرقة من حائط المبنى، الذي غُطي بقرميد رمادي اللون لُصق بالجص على مربعات تشبه لوحة لعبة «الجو»، كانت توجد نوافذ مرتفعة ثُبتت عليها بالطول أعواد خشبية في ضخامة ذراع الإنسان. وعلى الرغم من قساوة التعبير بعض الشيء، فإن الطلبة كانوا يعيشون في ذلك المسكن مثل الوحوش البرية. بالطبع لو أردت أن ترى مثل تلك النوافذ الآن، فلن تجد منها إلا أقل القليل في بعض أبراج قلعة «إيدو» العتيقة التي بها القصر الإمبراطوري. وربما كانت الأقفاص التي تُربى فيها الأسود والنمور في حديقة حيوانات «أوينو» مصنوعة من أسياخ أضعف من ذلك بكثير .

كان في مبنى سكن الطلبة هذا عمال للخدمة والحراسة. وكان الطلبة يستطيعون استخدام هؤلاء العمال في تلبية حوائجهم من مشتريات خارجية. كان للطلبة الفقراء، الذين يرتدون زي «الهاكاما» المتواضع مع حزام أبيض من القطن، مشتريات بسيطة ومحددة، ألا وهي حلوى

«اليوكان»، و«الكونبيتو» ـ وربما توجد فائدة تبقى مرجعًا لكتب التاريخ من ذكر أن «اليوكان» هو البطاطا المشوية، و«الكونبيتو» هو الفول المحمص. وكان أجر العامل سنَّين على كل مرة يذهب فيها للشراء .

وكان أحد هؤلاء العمال يسمى «سويزو». ومع أن العمال الآخرين كانوا يطيلون شواربهم ولحاهم مثل فروة الكستناء، وأفواههم فاغرة بينهما، إلا أن ذلك الرجل كان يحلق شاربه ولحيته بعناية كبيرة ويغلق شفتيه بصرامة بين ما تبقى من بشرته الخضراء بعد إزالة الشارب واللحية. ومع أن العمال الآخرين يلبسون زي «هاكاما» متسخًا قذرًا، إلا أن «سويزو» كان رداؤه نظيفًا لامعًا. وأحيانًا قد تجده يرتدي ملابس من قماش غالٍ وفوقها صُدرة .

ولقد سمعت شائعة لا أدري مَن أول قائل لها، أن من نفدت منه الأموال يستطيع الاقتراض من «سويزو». بالطبع القرض في حدود خمسين سنًّا أو ين واحد. ولكن بعد ذلك أصبح يقرض خمسة ينَّات، ثم عشرة ينَّات، ويجعل المقترض يكتب إيصال أمانة بها، ويعيد كتابته بعد انتهاء المدة. وفي النهاية أصبح «سويزو» مرابيًا محترفًا. في الأصل من أين له برأس المال ذلك؟ من المستحيل أن يكون رأس ماله عبارة عما جمعه من ادخار أجرة الذهاب للشراء التي تبلغ سنَّين. ولكن ربما في الواقع لا يستحيل شيء على الإنسان، إذا جمع كل ما يملك من قوة ذهنية وركزها في تحقيق ما يريد .

على كل الأحوال، في الوقت الذي انتقلت فيه كلية الطب من حي

«شيتايا» إلى منطقة «هونجو»، لم يعد «سويزو» يعمل خادمًا. ولكن لم ينقطع تدفق الطلبة بمختلف ألوانهم على البيت الذي انتقل إليه «سويزو» وقتها في منطقة «حافة البركة ».

كان «سويزو» قد تخطى الثلاثين من عمره عندما عمل خادمًا في الجامعة، وعلى الرغم من فقر معيشته، فإنه كان متزوجًا ويعول أطفالاً. ولكن بعد أن أصبح مرابيًا ناجحًا، وبعد انتقاله للعيش في «حافة البركة»، لم يعد يقنع بزوجته القبيحة سليطة اللسان .

وعندها تذكَّر «سويزو» إحدى النساء. إنها امرأة كان يراها أحيانًا عند ذهابه إلى عمله في الجامعة وإيابه منه، عندما كان يمر من خلف منطقة «نيريبيتشو» خلال أرض فضاء ضيقة. كان يوجد بيت مظلم، وأبوابه شبه مغلقة طوال العام، في منطقة من الطريق أغطية قناة الصرف مكسورة بها على الدوام. عندما كان يمر ليلاً من أمام ذلك البيت، كان لا بد أن يسير بجانب جسده، بسبب ضيق الطريق وبسبب وجود عربة بيع حلوى تحت إفريز السقف. والذي لفت انتباه «سويزو» في ذلك البيت كان صوت التدريب على آلة «الشاميسن »(**). ثم عرف أن صاحبة ذلك العزف هي فتاة لطيفة في السادسة أو السابعة عشرة من عمرها. كانت تلك الفتاة دائمًا نظيفة الهيئة، جميلة الثياب، ترتدي «كيمونو» صغيراً جميلاً، وهو الأمر الذي لا يتناسب مع ما يبدو عليه البيت من فقر. وكانت الفتاة، عندما يمر عابر بالطريق، تسرع بالدخول إلى المنزل المظلم حتى لو كانت واقفة عند المدخل. «سويزو»، الذي من صفاته الحذر والحيطة تجاه أي شيء، عرف بدون البحث خصيصًا

حول ذلك أن اسم تلك الفتاة «أوتاما»، وأنها يتيمة الأم وتعيش مع أبيها بمفردهما. وعرف أيضًا أن ذلك الأب يخرج لبيع الحلوى في حي «أكيهانوهارا». ثم حدثت في تلك الأثناء تغيرات جوهرية ثورية في هذا البيت الكائن في الجهة الخلفية من المدينة. العربة سالفة الذكر التي كانت تقف تحت إفريز السقف لم تعد موجودة في مكانها حتى عندما كان «سويزو» يمر من هناك ليلاً. والبيت الذي كان كئيبًا مظلمًا، وكذلك ما يحيط به، وكأنه قد اجتاحته ما كان يطلق عليها وقتها «الحضارة»، فأعيد تركيب أغطية قناة الصرف التي كان قد تهدم نصفها وانقلب النصف الآخر، وتغير التصميم الأمامي للبيت بشكل تام، وتم بناء بوابة خشبية جديدة أمامه. وفي إحدى المرات شاهد حذاءً مخلوعًا وموضوعًا أمام مدخل البيت. وبعد ذلك بفترة قصيرة وجد أن لوحة الاسم التي كانت على البيت قد تغيرت، وعندما نظر إليها وجد مكتوبًا عليها: «الشرطي فلان الفلاني» أو شيئًا من هذا القبيل. وأثناء لف «سويزو» ودورانه لشراء البضائع بين حي «ماتسوناجاتشو» وحي «ناكاوكاتشيماتشي»، عرف، أيضًا من دون بحث منه عن ذلك، أن شخصًا ما قد تزوج بنت العجوز بائع الحلوى وسكن معه في البيت نفسه. كان الشرطي المذكور في لوحة الاسم هو ذلك الزوج. كان تزويج «أوتاما» لذلك الشرطي ذي الوجه المخيف، بالنسبة للعجوز، الذي يحبها أكثر من مقلتي عينيه، مثل أن يختطفها وحش من الوحوش الشريرة. وكان دخول ذلك الشرطي بيته كزوج لابنته يضايقه ضيقًا ما بعده ضيق. لذا فقد استشار كل أصدقائه ومعارفه، ولكن لم يكن بينهم من قال له بكل وضوح: «ارفض ذلك الزواج». قال أحدهم :

ـ انظر ماذا حدث، لقد قلت لك، ألم أقل لك: دعني أعتني بالأمر لكي تذهب إلى مكان جيد؟ فتقول: «هي ابنتي الوحيدة ولا أستطيع فراقها». حتى جاءك زوج لا تستطيع رفضه .

وقال آخر بنبرة تهديد :

ـ إذا كنت رافضًا لذلك الزواج فيمكن أن تنتقل للعيش في مكان آخر بعيد، ولكن لأنه شرطي فمهما كان المكان بعيدًا فهو قادر على البحث عنه، والوصول إليك، ويبدو أنه لا مهرب لك من الأمر .

وكان أفضل الآراء ما قالته سيدة، مشهورة بأنها ممن يفهمون أمور الدنيا جيدًا، وكان كالتالي :

ـ ألم أنصحك أن ترسلها إلى إحدى معلمات «الجيشا» تتتلمذ وتتعلم فنونهن، حيث إن معلمة منهن قد مدحت عزفها قائلة عنها: «حسنة العزف»؟ فرجل الشرطة العازب يدور البيوت بيتًا، بيتًا، وإذا تُركت فتاة جميلة حسنة الوجه، فهو يأخذها من دون أي اعتبار. ويبدو أنك وقعت بالفعل في قبضة أحدهم، ولذا لا يوجد أمامك إلا الاستسلام للأمر، على أنه قدرك التعيس .

مرت تقريبًا ثلاثة أشهر بعد سماع «سويزو» تلك الشائعات. شاهد «سويزو» بيت العجوز صانع الحلوى في صباح أحد الأيام، وكان موصدًا، علقت عليه لافتة مكتوب عليها: «بيت للإيجار، الوسيط في آخر حي «ماتسوناجاتشو» ناحية الغرب». وعندها سمع «سويزو»

شائعات الجيران، أثناء ذهابه لشراء ما يُطلب منه من مشتريات، وهي أن الشرطي كانت لديه زوجة وأطفال في بلدته الريفية، وجاءت الزوجة فجأة لزيارته، وأحدثت ضجة كبرى، فخرجت «أوتاما» من البيت قائلة إنها ستنتحر بإلقاء نفسها في البئر، ولكن منعتها جارتها التي تصادف وجودها وسماعها ما حدث .

عندما تقدم الشرطي للزواج من ابنة العجوز، قام العجوز باستشارة أناس عديدين ولكن لم يكن من بين من استشارهم شخص لديه خبرة قانونية لينصح العجوز بالنظر إلى كيفية تقديم أوراق الزواج وتوثيق العقد، ولذا لم يكن العجوز يعلم ماذا تم من إجراءات بهذا الشأن. وعندما قال الشرطي وهو يداعب لحيته :

ـ أنا سأقوم بكل ما يلزم من إجراءات .

لم يشك فيه العجوز مطلقًا .

في تلك الأثناء، في محل بقالة يُسمى «كيتازومي» في حي «ماتسوناجاتشو»، كانت فتاة ذات وجه بيضاوي أبيض قصيرة الفك، يسميها الطلبة «عديمة الفك». قالت تلك الفتاة لـ«سويزو »:

ـ حقًّا إن «أوتاما» فتاة مسكينة جدًّا. ولأنها ذات سريرة صالحة صدقت بالفعل أنه أتى للزواج منها، ولكن يقال إن الشرطي كانت نيته مجرد إيجاد مكان للسكن .

تدخل أبوها العجوز «كيتازومي» في الحديث من ورائها، فقال وهو يمسح بيده على رأسه الأصلع :

ـ أبوها العجوز مسكين هو الآخر. فمن خجله من أبناء الحي لم يقدر على البقاء كما هو وآثر الانتقال للسكن في منطقة غربي «توريجوي». ومع ذلك فإذا لم يوجد أطفال في الحي، فلن يستطيع الاستمرار في مهنته القديمة نفسها، ولذا يأتي كل يوم لبيع حلواه في حي «أكيهانوهارا» كما كان في السابق. ومع أنه باع عربته مرة، ولكنه عندما أخبر محل العربات القديمة في حي «ساكوماتشو»، الذي تركها له، بما حدث، وافق على إعادتها له. وبالطبع قد كلفه هذا الأمر، بالإضافة إلى تكاليف نقل السكن، كثيراً من الأموال، ما جعله يعاني ماليًّا من ذلك. والشرطي من ناحيته، أهمل زوجته وأطفاله في بلدته، وبوجه صفيق كان يشرب الخمر مع العجوز الذي لا يقدر على شرب الخمر بحال من الأحوال، من المؤكد أن الشرطي كان أثناء ذلك وكأنه يشاهد حلمًا قد صار فيه في تقاعد مريح .

بعد ذلك ومع أن «سويزو» قد نسي تمامًا أمر «أوتاما» بنت بائع الحلوى، إلا أنه تذكَّرها مرة أخرى فجأة بعد أن صار غنيًّا ويتمتع تدريجيًّا بالحرية شيئًا ما .

الآن وبعد أن صار «سويزو» له شأن في المجتمع، فقد أرسل امرأة إلى ناحية غربي «توريجوي» استطاعت أن تجد بيت صانع الحلوى العجوز بجوار محل للعربات خلف «ريوسيزا». ووجدت «أوتاما» تسكن معه.

وعندما حملت لهما حديثًا أن أحد كبار التجار يبحث عن محظية، في البداية قالت إنها لا ترغب مطلقًا في هذا، ولكن في النهاية، ولأنها امرأة عاقلة، قبلت ذلك من أجل والدها، وتقرر أن يكون اللقاء بينها وبين السيد في مطعم «ماتسوجن».

الفصل الخامس

عندما اكتشف «سويزو»، الذي لم يكن يفكر في أي شيء سوى النقود، مكان «أوتاما»، وقبل أن يعلم هل ستوافق أم لا، ظل يبحث في الجوار بنفسه عن بيت للإيجار. وأثناء رؤيته لعدد من البيوت، وجد «سويزو» بيتين قد نالا إعجابه. الأول في منطقة «حافة البركة » نفسها التي يسكن فيها، تقريبًا في منتصف المسافة بين قصر «جينئتيشرو فوكوتشي» المجاور لبيته ومطعم «رنجيوكو» لـ«السوبا» الذي كان لا يزال شهيراً وقتها، وكان ذلك البيت يقترب قليلاً من مطعم «رنجيوكو» عند الركن جنوب-غرب البركة، وبُني بحيث يكون منزويًا قليلاً عن المارة. توجد حوله وبين سور من الأشجار الرباعية، شجرة خيزران مع شجرة أرز يابانية وشجرتي سرو أو ثلاث، وتُرى من بين الأشجار نافذة مثبت بها أعواد من الخيزران. وبسبب وجود لافتة «بيت للإيجار» على المنزل دخل «سويزو» لرؤيته، فوجد أنه ما زال مسكونًا، وأرشدته امرأة عجوز في حوالي الخمسين من عمرها إلى الداخل وجعلته يراه جيدًا. على حد قول تلك العجوز التي تكلمت من تلقاء نفسها، إن زوجها كان كبير مساعدي حاكم إقطاعية في إقليم «تشوجوكو» بوسط اليابان. وبعد إلغاء الإقطاع توظف في وزارة الخزانة ليُحصِّل معاشه. وقد بلغ بضعة وستين عامًا من العمر، ولكنه محب للنظافة، فهو يدور في أنحاء طوكيو باحثًا عن البيوت النظيفة حديثة البناء، فيؤجرها للسكن، ولكن بعد أن تقدُم قليلاً يتركها بسرعة وينتقل إلى مكان جديد . وبالطبع فأولادهما قد تزوجوا واستقلوا بحياتهم منذ وقت طويل، ولذا لا يوجد أحد يجعل البيت في حالة فوضى، ولكن لأن البيت على الأقل يقدُم

بسبب السكنى فيه، فلا بد من تغيير الأوراق التي تغطي الأبواب وتغيير حصير «التاتامي». وهو لا يقوم بذلك ويتجه لترك المنزل سريعًا إلى مكان آخر. ولأن زوجته العجوز تكره ذلك فهي تشتكيه مر الشكوى في غيابه حتى إلى الغرباء. قالت :

ـ هذا البيت مثلاً ما زال جديدًا نظيفًا كما ترى، ومع ذلك قال إنه ينوي تركه بالفعل .

ثم جعلته يرى بالتفصيل كل ركن وكل جزء في البيت. كان المنزل نظيفًا جميلاً من أقصاه إلى أقصاه بالفعل. أعجبه المنزل وسأل عن الإيجار ومبلغ التأمين والوسيط ثم سجل ذلك في مفكرته وخرج .

البيت الثاني كان بيتًا صغيراً في منتصف منحدر «موئنزاكا». ولم تكن عليه لافتة أو أي شيء، ولكن «سويزو » سمع أنه معروض للبيع فذهب لرؤيته. ومالكه صاحب محل لرهن الأشياء الثمينة في منطقة «يوشيما» التي اقتطعت من الجبل، اعتزل العمل وترك المحل لولده، وكان يعيش هنا ومات منذ وقت قصير فأخذ الابن أمه العجوز للعيش معه. البيت المجاور له هو مدرسة لتعليم الحياكة، فربما يكون هناك بعض الضوضاء، ولكن لأنه بيت تقاعده فقد اختار مالكه أجود أنواع الأخشاب لبنائه، ولذا فالعيش فيه يبعث على الراحة. وهو مصنوع بشكل دقيق وجميل في كل أركانه. بُني البيت بشكل بسيط ومتأنق من السور الخشبي للمدخل، وأرضية الحديقة المبلَّطة بأحجار الجرانيت حتى المبنى الداخلي .

ظل «سويزو» ليلة كاملة يتقلب في فراشه يفكر أيًّا من البيتين يختار. وبجواره زوجته التي كانت تحاول جعل طفليهما ينامان فنامت معهما، فاتحة فمها الواسع، مصدرة شخيراً لا يليق بأنثى. ولأن الزوج كان من عادته الدائمة عدم النوم ليلًا بسبب التفكير في عوائد فوائد القروض، فالزوجة لم تبالِ مطلقًا باستيقاظ زوجها طوال الليل . ولكن «سويزو» كان مفعمًا بالمَرح في داخله. وأثناء تفكيره ومشاهدة وجه زوجته فكر في الآتي: «مع أنكِ أيضًا امرأة، ولكن ما أقبح وجهك يا امرأة! مع أنني لم أقابل «أوتاما» مَنذ وقت طويل، إلا أنها كانت قد تركت لتوها مرحلة الطفولة، وكانت على الرغم من هدوئها تمتلك روحًا حية ووجهًا جميلاً لا أقدر على الصبر حياله، وأتمنى لو ضممته إليَّ وقبلته. بالتأكيد هي الآن قد أصبحت أكثر جمالاً وأنوثة. إنني أتوق لرؤية وجهها. آه، يا لكِ من زوجة سيئة. تنامين هكذا بلامبالاة. لو تظنين أنني لا أفكر إلا بالأموال فقط فأنت على خطأ كبير . هاه! الويل لقد جاء البعوض، هذا ما كان ينقصني. أنَا أكره منطقة «شيتايا» لأنها بهذه الحال. يجب عليَّ الإسراع بإسدال الناموسية، لا تعنيني الأم، تبًّا لها، ولكن الطفلين هما من سيمتص البعوض دمهما». وبعد أن يفكر بهذا الشكل، يعود مرة أخرى للتفكير في البيت الجديد. وعندما فكر مليًّا في الأمر من كل نواحيه وأوشك على الوصول إلى قرار كانت الساعة قد جاوزت الواحدة. وكان تفكيره هذا كالتالي: «البيت الذي في منطقة «حافة البركة»، ربما كان يطل على منظر بديع ولكنني سئمت هذا المنظر في هذا البيت. والإيجار رخيص ولكن اختيار منزل إيجار سيغرمني أشياء أخرى. بالإضافة إلى ذلك، البيت يوجد في مكان مفتوح وواسع، ويلفت انتباه الناس بسهولة . ولو نسيت النافذة مفتوحة ومرت زوجتي

مصطحبة الطفلين ذاهبة إلى منطقة «ناكاتشو» مثلاً ورأتني سيكون أمرًا مزعجًا . أما بيت «موئنزاكا» فتبدو عليه الكآبة، ولكنه في موضع لا يمر به أحد تقريبًا باستثناء الطلبة في تريضهم. نعم دفع مبلغ معتبر لشرائه دفعة واحدة أمر مكلف، ولكنه رخيص مقارنة بما استخدم فيه من أخشاب ومواد بناء، وإذا تم التأمين عليه، فيمكن عند بيعه استعادة المبلغ المدفوع فيه مما يشعرني بالأمان. حسنًا لقد اخترت «موئنزاكا». في مساء كل يوم أذهب للحمام العام، وأعد نفسي جيدًا، ثم أقول لزوجتي أي شيء يناسب الموقف، وأخدعها ثم أخرج. وعند ذلك عندما أفتح ذلك الباب الخشبي، وأدخل مباشرة في طريق مستقيم، كيف ستكون الحال؟ آه يا «أوتاما ». لا بد أنها ستجلس وفي حجرها قط أو ما شابه وتنتظر قدومي في وحدة قاتلة. بالطبع ستكون قد أعدت وَجهها بالمساحيق. أما ملابس «الكيمونو» فسأحضر لها منها ما تريد. انتظر! لا، لا يجب استخدام الأموال بسفه. فيوجد لدى محلات الرهن ملابس عظيمة. فمن الأفضل عدم الصرف بغباء كبير على ملابس ومساحيق وجه لامرأة واحدة مثلما يفعل رجال المجتمع. فمثلاً جاري السيد «فوكوتشي » ، يملك دارًا أكبر بكثير من داري، ويصطحب فتيات «الجيشا » من محل «سكياماتشي» متباهيًا بهن في منطقة «حافة البركة » ، جاعلاً الطلبة ينظرون إليه بحسد، ولكنه في الواقع يعاني سرًّا من أزمة مالية. إذا سمع زملاؤه العلماء ذلك سيذهلون. يفشل المرء إن ظن أنه يستطيع النجاح في التجارة لمجرد أنه بارع في الكتابة .

آه. نعم، نعم أتذكر أن «أوتاما» كانت تعزف على آلة «الشاميسن». سيكون من الجميل أن تُسمعني عزف يديها لتعبر عن حبها لي، ولكن

ربما كان ذلك مستحيلاً، فهي عديمة الخبرة لا تعرف شيئًا عن الحياة سوى تلك الفترة مع الشرطي. ربما ترفض قائلة: «لأنك ستضحك على عزفي»، ومهما أطلب منها أن تعزف تمتنع. ومهما طلبت وتدللت ستخجل بالتأكيد. لا شك سيصبح وجهها ورديًّا من حمرة الخجل والاستحياء. ماذا ستفعل يا ترى في أول ليلة أذهب إليها؟ »..

وهكذا ظلت أفكاره تروح وتجيء طولاً وعرضًا، ولا تُعرف لها نهاية . وأثناء تفكيره في هذا وذاك أصبحت الأفكار متقطعة، فيظهر له جسدها الأبيض، ويسمع همساتها. وفي النهاية نام «سويزو» في مشاعر ممتعة . وما زالت زوجته بجانبه تغط في شخيرها .

الفصل السادس

كان اللقاء الأول في «ماتسوجن» عيدًا بالنسبة لـ«سويزو ». وعلى الرغم من القول عن البخلاء إنهم يشعلون أصابعهم عوضًا عن الشموع، فإنه توجد أنواع عديدة ممن يكتنزون المال . نعم توجد صفات مشتركة بينهم جميعًا مثل الاقتصاد في تفاصيل التفاصيل، ومثل قطع المناديل الورقية نصفين واستخدام كل نصف على حدة، وكتابة الرسائل بخط صغير تصعب قراءته بدون اللجوء إلى مكبر، للاكتفاء ببطاقة بريدية واحدة. ولكن يوجد بينهم من يمتد بذلك إلى كل مناحي معيشته اليومية ويشعل حقًّا النار في أصابعه، وكذلك يوجد من يفتح له متنفسًا في مكان ما ليستنشق منه عبق الحياة. ولكن البخلاء الذين يتم تصويرهم في الروايات وتمثيلهم في المسرحيات جميعهم على الأغلب من النوع الأول الصارم في كل شيء. إنما كثير من مكتنزي الأموال الذين يحيون في الواقع ليسوا كذلك. تجد منهم من لا يصبر أمام النساء على الرغم من بخله، أو من يسرف في الأكل والولائم بشكل عجيب. ولقد سبق أن ذكرت بشكل سريع أن «سويزو» هوايته الاعتناء بمظهره الجميل، وعندما كان يعمل خادمًا في الجامعة، تجده مثلاً في أيام العطلات يخلع ملابس العمل المعتادة الضيقة ويرتدي زيًّا أنيقًا يجعله مثل كبار التجار. وكانت تلك متعته. وسبب ذلك اندهاش الطلبة بشدة في المرات النادرة التي يقابله أحدهم صدفة وهو يرتدي تلك الملابس الفخمة من أعلاه إلى أسفله . ولم يكن لدى «سويزو» هواية أخرى غير تلك. فلم يسبق له الجري وراء الغانيات ولا بنات «الجيشا»، ولم يسبق له التردد على المطاعم للاستمتاع بالطعام

والشراب. بل إن تناول أكلة «السوبا» في مطعم «رنجيوكو» كان بالنسبة له أقصى درجات التبذير، ولم يصطحب زوجته وأطفاله إلى ذلك المطعم لزمن طويل مضى . والسبب أن منظر زوجته كان لا يتناسب إطلاقًا مع ما هو عليه من أناقة في الملبس. وعندما تلح عليه في طلب ذلك، كان «سويزو» يرفض طلبها دومًا قائلًا :

ـ لا تتغابي يا امرأة. فوضعك يختلف عن وضعي، فأنا مرغم على ذلك من أجل التعاملات مع الزبائن .

بعد ذلك بوقت طويل، وبعد أن ولدت الأموال أموالًا، كان «سويزو» يرتاد المطاعم أحيانًا، ولكن كان ذلك يقتصر على الذهاب في جماعة من الناس، ولم يذهب بمفرده مطلقًا. ولذا عندما تقرر أن يقابل «أوتاما» للمرة الأولى، أصابته مشاعر التباهي والتفاخر وقال :

ـ لنجعل اللقاء في «ماتسوجن ».

حسنًا عندما تقرر أخيراً اللقاء الأول، ظهرت مشكلة لا سبيل لتلافيها. ألا وهي إعداد «أوتاما» للقاء. لو كان تجهيز ملابس «أوتاما» فقط، فالأمر مقدور عليه، ولكن كان يجب إعداد ملابس أبيها العجوز كذلك. ولقد انزعجت المرأة التي كانت تتوسط بينهم لذلك بشدة، ولكن لأن الابنة توافق فورًا على ما يقوله الأب بدون أي معارضة أو نقاش، فقد أصبح الأمر لا مفر منه لأنه إذا حاولت المرأة الضغط لصرفه عن ذلك، ربما يسبب ذلك فشل المفاوضات بشكل جذري. وكان رأي

الأب العجوز هو كما يلي :

ـ إن «أوتاما» هي ابنتي الوحيدة الغالية. وهي تختلف عن البنت الوحيدة للآخرين، إنها الوحيدة الباقية لي من كل أهلي وأقربائي. كنت أعيش حياة موحشة وأعتمد على شخص واحد فقط هو زوجتي التي توفيت، زوجتي تلك حملت في «أوتاما» وولدت لأول مرة في حياتها بعد أن تخطت الثلاثين من العمر، وفي النهاية توفيت بسبب الحمل والولادة. ولقد ربيت ابنتي بعد أن استأجرت المراضع لها، وبعد أن بلغت بصعوبة عمر الأربعة أشهر، أصيبت بالحصبة التي كانت متفشية في مدينة «إيدو» وقتها، وفقد الطبيب الأمل في إنقاذها، ولكني ألقيت بكل ما ورائي من أعمال ومسؤوليات وظللت أمرِّضها حتى كُتب لها عمر جديد. كان ذلك في العام الثاني لاغتيال الإقطاعي الكبير «ناوسكيه إيي» الذي هز المجتمع الياباني، والعام نفسه لمقتل الغربيين الأجانب في حادثة «ناماموجي». وبعد ذلك فقدت المحل الذي كنت أعمل به وفقدت كل شيء، لدرجة أني فكرت في ترك كل شيء والإقبال على الموت، ولكني لم أستطع أن أقتل معي «أوتاما» البريئة الجميلة التي كانت تلعب بيدها الصغيرة في صدري وتضحك لي وهي تنظر إليَّ بعينيها الواسعتين، ومن أجلها تحملت ما لا يُحتمل وصبرت يومًا بعد يوم مواصلًا حياتي معها. عندما وُلدت «أوتاما» كنت قد بلغت الخامسة والأربعين من العمر، وبسبب استمرار الفقر والمعاناة كنت أبدو أكبر سنًّا من عمري هذا، وكان هناك من ينصحني بطيبة قلب قائلًا: «إذا لم يقدر فمٌ واحد على إيجاد الطعام؛ فربما فمان يقدران (***) ، أنا أعرف أرملة لديها بعض المال ويمكن أن أسعى بينكما لتتزوجها، أما هذه

الطفلة فيمكنك أن تجد من يتبناها». ولكني رفضت ذلك بحزم حبًّا في «أوتاما». وبعد أن ربيت «أوتاما» بهذه المعاناة، وكما يقول المثل: «تربية الفقر تجلب الغباء»، أصبحت في أشد حالات الحنق والغيظ لوقوعها في براثن رجل عديم المروءة جعلها ألعوبة له يلهو بها. ولكن ما يجلب لي السعادة هو قول الجميع عنها إنها ابنة صالحة وبارة، ولقد حاولت تزويجها من رجل ذي اعتبار، ولكن لم أجد من يقبل بها ولها أب في مثل حالي. ومع ذلك كنت أرفض بشدة أن أجعلها محظية أو عشيقة، مهما وصلت الحال، ولكن لأنك تقولين إنه سيد محترم وجاد، ولأن «أوتاما» ستبلغ العشرين في العام القادم، ولذا ما في يدي حيلة أخرى، وافقت قبل أن تفوتها السن المناسبة. ويتحتم عليَّ أن أذهب أنا أيضًا لمقابلته والتعرف عليه لأنني سأعطيه «أوتاما» التي لا تُقدر عندي بثمن .

أحس «سويزو» بعدم الرضا عندما سمع هذا الكلام من المرأة الوسيطة بينهم، وذلك لاختلاف الوضع قليلاً عما كان يخطط له. فقد كان يفكر أنه عندما تجيء «أوتاما» إلى مطعم «ماتسوجن» سيطلب من المرأة الوسيطة الانصراف سريعًا بقدر الإمكان، ويتمتع هو بوجوده بمفرده مع «أوتاما» وجهًا لوجه. ولكن يبدو أن خطته تلك باءت بالفشل. فإذا كان الأب أيضًا سيأتي معهما، فيبدو أن الموقف على غير المتوقع سيكون احتفاليًّا. «سويزو» نفسه يحس في أعماق قلبه بنوع من الاحتفال، ولعل ذلك بسبب أن الأغلال التي ظلت فيما مضى تُقيد رغباته بدأت الخطوة الأولى لحلها، بمعنى أنها فرحة الانطلاق، وكان الشرط الأول لتحقيق ذلك أن يكون وجهًا لوجه مع «أوتاما». ولكن إذا كان الأب سيظهر في

هذا اللقاء، فطبيعة ذلك الاحتفال ستختلف تمامًا. وكما سمع من المرأة الوسيطة، فالأب والابنة كلاهما ذو عقل فطن، في البداية رفضا مسألة العمل كمحظية، واتفق الاثنان معًا في الرفض، ولكن المرأة في أحد الأيام دعت الابنة لخارج المنزل، وقالت لها :

ـ ألا ترغبين في التخفيف عن كاهل والدك الذي يقل دخله يومًا بعد يوم؟

وشرحت لها وشجعتها، وفي النهاية جعلتها توافق، ثم جعلتها تقنع والدها. عندما سمع ذلك، فرح في قلبه سرًّا أنه سيستطيع الحصول على تلك الفتاة العاقلة ذات القلب الطيب، ولكن إذا كان من سيأتي هما أب وابنة بذلك الذكاء، فعلى ما يبدو سيكون اللقاء الأول في مطعم «ماتسوجن»، وكأنه لقاء يحمي المستقبل، ولذا فلقد تغير الاحتفال إلى اتجاه غريب نوعًا ما، مما جعل «سويزو» يشعر كأنه قد انسكب فوق رأسه الدافئ كوب من الماء المثلج .

ولكن في نهاية المطاف كان «سويزو» يرى أنه يتحتم عليه التسويق لنفسه على أنه رجل أعمال عظيم، ويريد أن يُظهر لهما ما هو عليه من عظمة وغنى، لذا رضي بتحمُّل تكلفة استعدادات الاثنين. وذلك لأنه إذا كان سيحصل على «أوتاما»، فلن يكون من الممكن إهمال الأب وتركه لحاله، ولذا فلا يزيد الأمر على أن الشيء الذي كان سيفعله فيما بعد، تحتم عليه فعله مقدمًا، ولذا استسلم «سويزو» للأمر، وأخذ قراره السابق ذكره بتحمُّل كل التكاليف .

الوضع الطبيعي في هذه الحالة هو أن يسأل الشخص: «كم تتكلف هذه الاستعدادات؟»، ثم يقوم بدفع المبلغ المطلوب دفعة واحدة، ولكن «سويزو» ليس من يفعل ذلك. فـ«سويزو» الذي كانت هوايته أن يجعل مظهره رائعًا، يعرف محل حياكة يصنع له ملابسه هو فقط دون باقي أسرته، ذهب له وأخبره بالموقف وطلب منه أن يصنع ملابس تليق بالاثنين. بقيت مشكلة أخذ المقاسات فقط، فطلب من المرأة الوسيطة أن تسأل «أوتاما» عن المقاسات. ولكن الأمر المحزن أن هذا الفعل البخيل من «سويزو» الذي لا يسمح بأي تهاون، فسرته «أوتاما» على أنه معروف وجميل منه، لأنها اعتقدت أن عدم إعطائه لهما الأموال نقدًا ناتج عن احترامه لهما .

الفصل السابع

إن منطقة «أوينو هيروكوجي» نادرًا ما تحدث بها حرائق، ولأنه ليس هناك في ذاكرتي أن «ماتسوجن» قد احترق، لذا ربما توجد تلك الغرفة حتى الآن كما هي. ولأن «سويزو» طلب مسبقًا غرفة صغيرة في أحد الأماكن الهادئة، فقد تم إرشاده إليها بعد أن صعد من المدخل المطل على الجهة الجنوبية، وسار قليلًا في ممر مستقيم، ثم دخل يسارًا، كانت الغرفة مساحتها ست قطع من حصير «التاتامي ».

وعند دخوله كان رجل يرتدي معطفًا نصفيًّا عليه علامة المحل يفرد مظلة كبيرة مصنوعة من ورق مقوى .

شرحت له النادلة التي قادته إلى المكان قائلة :

ـ تدخل أشعة شمس الغروب المكان ولا تختفي إلا عند غروب الشمس تمامًا .

ثم تركته وانسحبت من المكان .

جلس «سويزو» معطيًا ظهره إلى مكان الزينة الذي وضعت فيه مزهرية بها عود واحد من زهرة الياسمين ومعلق على الحائط لوحة «أوكيئه »(****) مرسومة باليد، لا يمكن معرفة كونها أصلية أم تقليدًا، ثم أخذ يتفقد المكان بنظرات حادة .

بخلاف الطابق الثاني، أحيط المبنى من الخارج بسور من الخيزران، فحُرم المكان المواجه لبركة «شينوبازو» من رؤيتها، وذلك حتى لا ينكشف للمارين ذهابًا وإيابًا بالمضمار الذي يحيط بالبركة ـ وقد أصبح المضمار بعد ذلك بوقت طويل ملعبًا لسباق الخيل، ومع حدوث تغيرات هائلة في المجتمع أصبح المكان نفسه ملعبًا لسباق الدراجات. لا يوجد في المساحة بين السور والمبنى إلا أرض ضيقة طويلة مثل الحزام، ولذا لا يمكن إنشاء شيء فيها يطلق عليه حديقة. من المكان الذي يجلس فيه «سويزو» يمكن رؤية جذوع لشجرتين أو ثلاث من شجر «الباراسول» الصيني مزروعة على مسافات متقاربة، بدت جذوعها مصقولة وكأنها قد مسحت بقماش نُقع في زيت. وكذلك يُرى من المكان نفسه أحد أعمدة الإنارة الصخرية. غير ذلك توجد بعض أشجار السرو الصغيرة هنا وهناك. ومع أن عاصفة من الغبار الأبيض تتصاعد من موضع أقدام المارة في شارع «هيروكوجي»، الذي استمرت به أشعة الشمس لفترة، إلا أنه داخل السور، كان العشب الذي رش بالماء يتألق بلون أخضر .

لم يمر وقت طويل حتى أتت النادلة بالشاي الأخضر وطارد البعوض، وسألت عن الطلبات، فصرفها «سويزو» قائلًا :

ـ لنؤجل ذلك حتى يأتي باقي الرفاق .

ثم بدأ في تدخين التبغ. وعلى الرغم من أنه أحس عندما جلس في البداية أن الجو حار قليلًا، ولكن بعد فترة، لم تكن الحال تدعو أن يأخذ

في يده مروحة الريش اليدوية المتسخة التي تركتها له النادلة قبل أن تذهب، فقد كانت نسمات الرياح تهب من وقت لآخر من ناحية الممر، تختلط قليلاً بروائح مواد عديدة من الأماكن التي مرت منها مثل المطبخ والمرحاض .

استند «سويزو» إلى العمود الكائن بطرف مكان الزينة في الغرفة، وغرق في التخيلات وهو ينفخ دخان التبغ في هيئة دوائر. فـ«أوتاما» التي كان يشاهدها وهو يمر من أمام بيتها ويراها بنتًا جميلة، فمهما قلنا فقد كانت طفلة صغيرة. تُرى أي نوع من النساء صارت؟ وما الهيئة التي ستأتي بها الآن؟ على كل الأحوال مجيء أبيها العجوز معها كان أمرًا سيئًا لدرجة كبيرة. وفكر: ألا توجد حيلة ما، يستطيع بها صرف العجوز وجعله يرحل مبكرًا؟ في الطابق الثاني بدأ أحدهم دوزنة آلة «الشاميسن».

سُمعت أصوات أقدام لشخصين أو ثلاثة آتية من الممر، ثم أطلت النادلة بوجهها أولاً قائلة :

ـ السادة الضيوف .

ثم جاء صوت المرأة العجوز التي توسطت في الأمر وهي تقول بنبرة مزعجة تشبه صوت صرار الليل :

ـ هيا، تفضلا بالدخول مباشرة. فالسيد رجل متفتح ولا يحتاج الأمر إلى الاستحياء منه .

وقف «سويزو» على الفور من جلسته. وعندما خرج إلى الممر ليطالع الأمر، كانت «أوتاما» واقفة تتأمل المكان كهيئة الناظر لشيء نادر من دون أن يبدو عليها أي خوف أو وجل، وأمامها الأب العجوز يقف في حيرة محني الظهر بجوار الجدار عند الركن. وجه «أوتاما» الذي كان في الماضي مستديرًا مكتنز اللحم، والذي كان يعطي انطباعًا بأنها طفلة ظريفة، صار في لمح البصر وجهًا رفيعًا، وكذلك قوامها صار ممشوقًا عن ذي قبل. تربط شعرها بالطريقة التقليدية على شكل ورقة شجر «الجِنْكُو» المقلوبة، ولا تضع على وجهها المساحيق الثقيلة التي تضعَها النساء عادة في هذه الحالة، بل يمكن القول إنها تبدو تقريبًا بوجه خال تمامًا من أي مساحيق. واختلف ذلك كليًّا عن المنظر الذي تخيله، بلٍ كان أكثر جمالًا بدرجة كبيرة. نظر «سويزو» إلى تلك الهيئة وكأنه يمتصها في عينيه، وشعر في داخله بالرضا الكامل. أما عن «أوتاما» فمع أنها قد جاءت مضحية بحياتها بعد أن قررت بيع نفسها لإنقاذ والدها من عناء الفقر، فلم يكن يهمها مَن الشاري، إلا أنها عندما رأت في عين «سويزو» الثاقبة الحب والاحترام، وقد استعد بذوق عال غير لافت، فكأن حياتها التي ضحت بها قد عادت إليها ثانية، وشعرتً لحظيًّا بالرضا إزاء ذلك .

قال «سويزو» للوالد العجوز بأدب واحترام، وهو يشير بيديه إلى الغرفة المخصصة لهم :

ـ تفضل بالقدوم إلى هنا مباشرة .

ثم نقل نظره إلى «أوتاما» وحثها على الدخول بكلمة :

ـ هيا .

ثم بعد أن أدخل الاثنين إلى الغرفة انتحى جانبًا بالمرأة العجوز التي تتوسط بين الطرفين، وسلمها في يديها شيئًا مطويًّا في ورق وهمس إليها بشيء ما. أظهرت المرأة أسنانها المتسخة من بقايا نزع غطاء الأسنان الأسود، وضحكت ضحكة لا توضح هل هي تحترم من أمامها أم تستخف به، وأحنت رأسها مرتين أو ثلاثًا، ثم ذهبت كما هي بظهرها غير مأسوف عليها .

عاد «سويزو» إلى الغرفة فلما رأى الأب وابنته يقفان مثل الكتلة الصماء عند باب الغرفة من الحياء، حثهما على الجلوس بأريحية، وقام بطلب الطعام من النادلة التي كانت تنتظر. وعلى الفور جاءت «الساكي» ومعها «المزَّة»، قدم «سويزو» الكأس للعجوز أولًا، وبعد الكلام معه وجد أنه رجل يعيش حياة عادية تناسبه، فهو في الأصل لا يلبس ملابس فخمة، ولا يرتاد مطعمًا راقيًا مثل هذا بسهولة .

حتى «سويزو» الذي كان في البداية متكدرًا من وجود العجوز كعقبة، بعد أن اندمجت مشاعرهما تدريجيًّا، أصبحا يتكلمان بأحاديث من القلب للقلب لم يكن يتوقعها أبدًا. ومع بذل «سويزو» كل جهده في أن يظهر أمامهما الصفات الحسنة العديدة التي يتميز بها قدر المستطاع، كان سعيدًا في داخل قلبه بصدفة وجود مثل هذه الفرصة المناسبة التي

لا يوجد أحسن منها لإيقاظ مشاعر الثقة لدى «أوتاما» ذات الطبع المتزن والهادئ .

وحينما جاء الطعام، كان الثلاثة وكأنهم أسرة واحدة خرجت معًا في يوم نزهة جبلية ثم عرجوا على أحد المطاعم لتناول الطعام. ولأنه في حياته العادية يتصرف بتكبر وطغيان تجاه زوجته وولديه، فهو في بعض الأحيان يتلقى من زوجته مقاومة، وفي بعض الأحيان يتلقى منها طاعة وخنوعًا، لذا شعر «سويزو» بعد أن رحلت النادلة، وعندما رأى «أوتاما» تصب «الساكي» بوجه قد احمر من الخجل وامتلأ بابتسامة حياء، بسعادة غامرة لم يشعر بها من قبل قط. أحس «سويزو» بشكل مباشر من دون وعي أن تلك السعادة التي طفت على مخيلته في هذه الجلسة عبارة عن شبح واهم، لكن لم يصل الأمر إلى درجة أن يحاسب نفسه، أو يفكر بتدقيق: لماذا لا يوجد في حياته الأسرية مثل هذا الإحساس بالسعادة؟ وما الشروط اللازمة من أجل الاحتفاظ بتلك العواطف المتكلفة ثابتة بدون تغيير؟ وهل تلك الشروط متوفرة فيه وفي زوجته، أم لا؟

سُمع فجأة خارج السور، صوت يضرب بمقرعة خشبية على فترات منتظمة. ثم بعد ذلك قال صوت :

ـ هيا، أسمعني شيئًا ما من المفضل لديك .

توقفت أصوات موسيقى آلة «الشاميسن» التي كانت تنساب من الطابق

الثاني، وقالت النادلة شيئًا ما وهي تمسك بالدرابزين. في الأسفل بدأ القائل يغير من صوته مقلدًا ممثلي مسرح «الكابوكي» ويقول :

ـ هيه، إذا كان الأمر كذلك فها هي أدوار «كوتشياما» لـ«ناريتايا»، ودور «ناوزاموراي» لـ«أوتوايا»، وفي البداية دور «كوتشياما ».

قالت النادلة التي جاءت لتغيير قنينة «الساكي »:

ـ يا للعجب، اليوم يبدو كأنه الممثل الحقيقي نفسه .

لم يفهم «سويزو» الأمر .

ـ تقولين «الحقيقي» و«المزيف»، أيوجد أشخاص كثيرون؟

ـ لا، ولكن مؤخرًا طلبة الجامعة يتجولون بالطرقات ويقومون بذلك .

ـ وهل يفعلون ذلك باستخدام المقرعة؟

ـ أجل. يتشابهون تمامًا في كل شيء حتى الملابس والمساحيق. ولكننا نعرفهم من الصوت فقط .

ـ إذا كان الأمر كذلك فهو شخص محدد .

ـ أجل. لا يوجد غير شخص واحد يفعل ذلك .

ثم ضحكت النادلة .

ـ إذن أنت تعرفينه جيدًا؟ !

ـ لأنه شخص يتردد علينا هنا كثيراً .

تدخل الأب العجوز في الحديث فقال :

ـ عجيب! أيوجد بين الطلبة من هو بارع لهذه الدرجة؟

صمتت النادلة .

ضحك «سويزو» بسخرية وقال :

ـ على الأغلب مثل هذا الطالب يكون فاشلاً في الدراسة .

قال ذلك، وفي داخل قلبه كان يفكر في أمر الطلبة الذين يأتونه دائمًا. بينهم من يقلد المحترفين، ويقول إن السخرية بالمحلات الصغيرة أمر ممتع، ويظل يستخدم طريقة كلام الممثلين المحترفين على الدوام. ولكن لم يعتقد «سويزو» أنه يسير في الطرقات عارضًا فن تقليد ممثلي «الكابوكي» بشكل جدي .

كانت «أوتاما» تستمع صامتة لحديث الجالسين، فنظر إليها «سويزو» قليلاً وقال :

ـ الآنسة «أوتاما»! من هو ممثلك المفضل؟

ـ لا يوجد ممثل محدد أعجب به .

وأضاف العجوز على كلامها :

ـ لأننا لا نذهب مطلقًا لمشاهدة مسرح «الكابوكي». حتى فرقة «ريوسيزا» المسرحية بجوار منزلنا مباشرة، تذهب بنات الحي لاختلاس النظر إليهم، ولكن «أوتاما » لم تذهب أبدًا. ويبدو أن بنات الحي عندما يسمعن تلك الأصوات المحببة إليهن: «دون تشان دون تشان » لا يمكنهن البقاء في بيوتهن .

كانت نبرة صوت العجوز تعلوها، رغمًا عنه، الرغبة في الفخر والتباهي بابنته .

الفصل الثامن

تم الاتفاق، وتقرر انتقال «أوتاما» للعيش في «موئنزاكا ».

ولكن «سويزو»، الذي كان يعتقد أن هذا الانتقال في منتهى البساطة، واجه عدة صعوبات. والسبب في ذلك أن «أوتاما» طلبت الاهتمام بأبيها، وأن يكون مسكنه بالقرب من مسكنها الجديد قدر الإمكان، لكي تذهب لزيارته من وقت لآخر. ومنذ البداية فكرت «أوتاما» في أن تستقطع الجزء الأكبر مما تحصل عليه من نقود وترسله إلى أبيها، وأن تجعل معه خادمة صغيرة السن، لكيلا يشعر والدها الذي تخطى الستين من العمر بأي صعوبة في معيشته. وإذا تم ذلك، فلن يكون من المحتم عليها ترك أبيها يقيم في البيت القديم الحقير المجاور لمحل بيع العربات في «توريجوي» الذي عاشا فيه حتى ذلك الوقت. إذا كان سيغير السكن على أي حال، فقد قررت أن ينتقل إلى مكان أكثر قربًا منها. تمامًا مثلما كان من المفترض أن يتم دعوة الابنة فقط في لقاء التعارف الأول، ولكن تقرر مجيء الأب العجوز معها، فكذلك وبينما اعتقد «سويزو» أنه يكفي تجهيز سكن لمحظية يستقبل فيه «أوتاما»، لكن في الواقع أصبح عليه تجهيز بيتين لانتقال الأب وابنته معًا .

بالطبع قالت «أوتاما » إنها ستجعل والدها يهتم بنفسه بموضوع الانتقال، ولن تسبب أي إزعاج لسيدها مهما كان صغيراً. ولكن بما أن «سويزو » أُبلغ بالأمر، فلم يعد يستطيع أن يتغافل عنه، وكأنه لا يعلم عنه شيئًا. وساعدته في ذلك حاجته إلى أن يظهر مثال الكرم والأريحية

أمام «أوتاما» التي زاد إعجابه بها أكثر وأكثر بعد لقاء التعارف، وأخيراً وفي توقيت انتقال «أوتاما» نفسه إلى سكن «موئنزاكا»، تقرر أن ينتقل الأب العجوز إلى المسكن الآخر في منطقة «حافة البركة» الذي عاينه «سويزو» من قبل. بهذا الشكل عندما شاورته في الأمر، ومهما قالت «أوتاما» إنها ستعتني بالأمر كله بنفسها من المال الذي تتلقاه منه، فهو لا يقدر، وهو يرى معاناتها، على أن يظهر وجهًا غير مبال، واضطر أن يتحمل التكاليف بشكل ما. ودفع «سويزو» كل ذلك بسهًولة، ما أذهل المرأة العجوز التي تتوسط بينهم، وجعل مقلتيها تكادان تخرجان من محجريهما مرات كثيرة من الدهشة .

انتهت في منتصف شهر يوليو الجلبة المصاحبة لانتقال «أوتاما» ووالدها. يبدو أن «سويزو» قد أعجب كثيراً بأسلوبها في الكلام الذي يليق بعذراء وسلوكها اليومي معه، فعلى الرغم من أنه في عمله كمرابٍ يستعمل كل ما يملك من صفات القسوة، فإنه أصبح يبذل تجاه «أوتاما» أقصى ما يستطيع من وسائل الوداعة والرقة، فكان يتردد كل ليلة على «موئنزاكا» لكي يرضيها. ويبدو أنه يُظهر هنا محتوى النصف الآخر للأبطال العظام الذي يذكره المؤرخون كثيراً في أقوالهم (*****).

كان «سويزو» يأتي كل ليلة ولكنه لم يبت ليلة واحدة . المرأة العجوز سالفة الذكر، ساعدتها في إحضار فتاة صغيرة لخدمتها تدعى «أوميه» تبلغ حوالي الثالثة عشرة من العمر، ولأنها تركتها تقوم بإعداد الطعام في المطبخ، أصبحت «أوتاما» تشعر تدريجيًّا بالملل من عدم وجود شخص تتحدث إليه، وأصبحت تتمنى كل مساء لو أن سيدها يأتي

مبكرًا قليلًا، وضحكت من نفسها عندما انتبهت لشعورها هذا.
فـ«أوتاما» عندما كانت في «توريجوي»، بعد أن يخرج والدها لعمله، وتصبح وحيدة في البيت، كانت تعمل أشغالًا يدوية منزلية، وكانت تشجع نفسها بالتفكير في أنها إذا انتهت من عمل تلك الكمية، فإنها ستحصل على المبلغ الفلاني من المال، وسيندهش والدها لذلك عند عودته إلى البيت، ولذا لم تكن «أوتاما» تشعر بأي ملل، مع أنها كانت لا تختلط مع بنات الجيران. ولذا فها هي في الوقت نفسه مع زوال المعاناة التي كانت تعانيها في الحياة المعيشية، تتعرف لأول مرة على معاناة الملل .

ومع ذلك فما زال ملل «أوتاما» هينًا، لأنه في المساء يأتي سيدها ويهون عليها الأمر. المضحك هو وضع العجوز الذي انتقل إلى «حافة البركة»، فذلك العجوز الذي كان في الماضي يلاحق لقمة العيش بصعوبة، فجأة انزاح عنه ذلك وأصبحت الحياة مريحة أكثر من اللازم، ما جعله يشعر بالدهشة وكأن ثعلبًا قد خدعه (******). ثم أصبح يشتاق كثيراً إلى الليالي التي كان يقضيها تحت المصباح الصغير يتحدث مع «أوتاما» أحاديث الحياة اليومية المعتادة من دون أن يعكر صفوهما أحد، وقد أصبح ذلك حلمًا جميلًا. ثم يظل ينتظر مجيء «أوتاما» المتوقع لزيارته. ولكن مع ذلك فقد مر وقت طويل ولم تأتِ «أوتاما» لزيارته ولو مرة واحدة .

في الأيام الأولى له في البيت الجديد، ومن فرط سعادته بحصوله على ذلك البيت الجميل، كان العجوز يجعل الخادمة التي أتت من الريف

تقوم فقط بحمل الماء وإعداد الطعام، وكان هو يقوم بنفسه بترتيب المنزل وتنظيفه، وكلما تذكر عدم وجود شيء ما، يرسل الخادمة إلى حي «ناكاماتشي» لتشتريه. وعندما يأتي المساء، كان يروي الأشجار المزروعة خارج الشرفة وهو يسمع الخادمة تصدر أصوات إعدادها للطعام في المطبخ، ثم ينظر، وهو يدخن التبغ، إلى ضباب الليل الذي يلوح تدريجيًّا مع صدور أصوات الغربان المزعجة في منطقة تلة «أوينو»، فوق غابة معبد «ناكاجيما» وفوق البركة التي تفتحت فيها زهور اللوتس. كان العجوز يشعر بالعرفان والامتنان وبأن الأمور على ما يرام. ولكنه منذ ذلك الحين بدأ يشعر بأن شيئًا ما ينقصه. والسبب هو عدم وجود «أوتاما» التي رباها بمفرده تقريبًا منذ كانت رضيعة، «أوتاما» التي كان يتواصل ويتفاهم معها من دون النطق بكلمة واحدة، «أوتاما» التي كان يجدها تنتظره بفارغ الصبر لدى عودته للبيت. يجلس العجوز عند الشرفة وينظر إلى لون البركة. ثم ينظر إلى المارة: «التي قفزت الآن سمكة شبوط كبيرة»، «المرأة التي مرت الآن كأنها تضع على رأسها ريش أحد الطيور كاملًا على قبعتها غربية الطراز». في كل مرة تأتيه رغبة قوية في القول: «انظري يا «أوتاما» إلى ...».

كان عدم وجودها هو سبب شعوره بعدم الرضا .

بعد مرور ثلاثة أو أربعة أيام أصبح متكدر المزاج تدريجيًّا، فيأتي بجوار الخادمة وكلما فعلت شيئًا يصاب بالحنق. ولكن لأنه لم يستعمل خدمًا لعشرات السنين، ولأنه في الأصل لطيف المعشر، فهو لا يعنفها. ومع ذلك لا يهدأ له بال لأن كل ما تفعله لا يوافق هواه. والسبب أنه ينظر

إليها ويقارنها بـ«أوتاما» ذات الطباع الهادئة في حياتها اليومية التي تتعامل مع أي فعل له بحلم ووداعة، ولذا أصبحت الخادمة القادمة لتوها من الريف، تشكل إزعاجًا هائلاً له. وفي النهاية، في اليوم الرابع عندما أمرها بإعداد طعام الإفطار، وشاهدها تمسك بطبق الحساء وقد غرزت فيه إبهامها، قال لها :

ـ كفى. توقفي عن إعداد الطعام واغربي عن وجهي .

بعد انتهاء الطعام، عندما نظر إلى الخارج، ورغم أن السماء كانت مليئة بالغيوم فإنه لا يبدو أنها ستمطر، بل على العكس بدا الجو غير حار ومعتدلًا وأفضل من الأيام المشمسة، لذا وفي محاولة للترويح عن نفسه، خرج من البيت للتريض. ولكنه حرص على ألا يبتعد كثيراً عن المنزل فتأتي «أوتاما» وتجده غائبًا، فكان يرجع خصيصًا ليدور حول أركان منزله وهو يسير بجوار البركة. وفي أثناء ذلك وصل إلى مكان الجسر الصغير الموجود بين حي «كاياتشو»، وحي «شيتشيكنتشو» والذي يؤدي إلى «موئنزاكا»، وفكر أن يذهب إلى بيت ابنته ليزورها، لكنه وجد في نفسه استحياء وتعجب من إحساسه برسمية الأمر، وقال: «لو كانت أمها في وضعي لما أمكن أن تنشأ تلك الفجوة بينهما بأي حال من الأحوال»، فلم يعبر الجسر، وسار كما هو متوقع بجوار البركة وهو يقول :

ـ شيء عجيب... شيء عجيب .

وعندما انتبه لنفسه كان منزل «سويزو» يوجد بالضبط على الجهة الأخرى من خندق المياه. وكانت المرأة التي توسطت بينهم قد أخبرته بذلك عندما أشارت بإصبعها إليه من شرفة منزل العجوز الذي انتقل إليه مؤخرًا. وعندما نظر إليه كان كما هو متوقع ذا هيئة عظيمة، وتوجد أعواد مائلة من الخيزران المسنون خارج السور الطيني المرتفع المحيط به. قصر السيد «فوكوتشي» المجاور الذي سمع أنه عالم كبير ومبجل، نعم حجمه أكبر، ولكن المبنى من طراز قديم، وإذا قارناه بمنزل «سويزو»، فسنجد أنه ليس به تلك المهابة ولا الزخرفة الزاهية. ظل العجوز واقفًا لفترة، ينظر إلى باب المدخل الخلفي المصنوع من الخشب الأبيض والمغلق بصرامة حتى في وقت النهار، ومع ذلك، لم تمر على ذهنه رغبة في دخول ذلك البيت. ولكن بدون سبب محدد، اجتاحه شعور بوحدة قاسية فظل واجمًا لفترة. لو عبرنا عن ذلك الشعور بالكلمات، فيجب القول إنه شعور الأب الذي هانت حاله وسقط لدرجة أن يبيع ابنته كمحظية .

وفي النهاية بعد مرور أسبوع لم تأتِ الابنة بعد لزيارة والدها. بدأ شعور الاشتياق الشديد لها، يبدو كأنه يتقهَقر، فيترسب في أعمق أعماقه، لترتفع في رأسه الشكوك المتمثلة في قوله: «يا لها من ابنة! أبعد أن صارت حياتها أكثر راحة، نسيت والدها»، ولكنها شكوك قام بإثارتها داخل نفسه متعمدًا، وكأنه يلهو، فقد كانت تلك الشكوك شديدة الهشاشة، فرغم أنه يشك فيها فإنه لم يشعر بأي حقد أو ضغينة تجاه ابنته. بالضبط مثل التورية الساخرة التي يستخدمها الناس في حواراتهم، كان الأمر مجرد تجربة قول: «سأكون أفضل حالًا لو كرهتها !».

عند ذلك الوقت، كان العجوز يفكر كما يلي: «إن بقائي في البيت على الدوام يجعلني أفكر في الكثير من الأمور، ولذا يجب أن أخرج من الآن فصاعدًا، وعندما تأتي ابنتي، سوف تأسف لعدم قدرتها على لقائي. حتى لو لم تشعر بالأسف، فإنها لا ريب ستشعر بالخسارة لإهدار الوقت في تلك الزيارة بدون جدوى. ومن الأفضل جعلها تشعر بذلك الشعور على الأقل». وأصبح يخرج من منزله بتلك النية متعمدًا .

ذهب إلى حديقة «أوينو» وجلس يستريح على دكة من دكك الحديقة تقع في الظل، وهو ينظر إلى عربات «الريكشا» التي يجرها البشر والمغطاة بوشاح، وهي تمر مخترقة الحديقة، ويتخيل ابنته وقد ذهبت إلى منزله الخالي فلم تجده فتقع في حيرة وبلبلة. كان شعوره وقتها هو شعور من يختبر نفسه بنفسه، هل سيحس بالسعادة من ذلك أم لا. في تلك الأيام كان أحيانًا يذهب في الليل لسماع حكايات «إينتشو» الحكواتي الشهير أو يشاهد عرض «تحطيب» الفنان «كومانوسكيه». حتى وهو جالس وسط مقاعد المتفرجين، كان كما هو متوقع يتخيل أن ابنته جاءت لزيارته أثناء غيابه عن المنزل. وأحيانًا يفكر فجأة بعد ذلك ألا يمكن أن تكون ابنته من ضمن الحاضرين هنا؟ فينظر إلى الفتيات الشابات اللاتي يربطن شعرهن بالطريقة التقليدية، وكأنه يفحصهن واحدة بعد أخرى. حدث ذات مرة أن شاهد إحدى الفتيات تربط شعرها بالطريقة التقليدية بعد أن انتهت الاستراحة الوسطى، وكان معها رجل يرتدي زي «اليوكاتا» ويلبس فوق رأسه قبعة «بنمية» كانت نادرة وقتها، كانت الفتاة تصعد للطابق الثاني في الخلف وهي تقبض على حافة درج السلم وبدون جلوس تنظر إلى مقاعد الجمهور في الطابق الأول،

وقد اعتقد لوهلة أنها «أوتاما». ولكن عندما نظر إليها جيدًا، وجد أنها أقصر من «أوتاما» ووجهها أكثر استدارة. وكان ذلك الرجل صاحب القبعة «البنمية» يصطحب معه ثلاث فتيات أخريات خلفه يعقدن شعرهن بأشكال مختلفة، وكن جميعًا بنات «جيشا» أو «جيشا تحت التمرين ».

قال طالب كان يجلس قريبًا من الأب العجوز :

ـ ها قد جاء الأستاذ «فوكوتشي ».

عندما انتهى العرض وخرج الجميع، نظر العجوز فوجد امرأة تحمل قنديلاً ورقيًّا كبيراً بحافة طويلة مكتوبًا عليه باللون الأحمر وبخط مائل: «مطعم فوكينوكي»، لتودع صاحب القبعة «البنمية» وقد تجمعت حوله بنات «الجيشا» ومن هن تحت التمرين. كان العجوز يسير مع تلك المجموعة تتقدم عليه أحيانًا أو يسبقها هو أحيانًا أخرى، حتى وصل إلى بيته .

الفصل التاسع

بالطبع كانت «أوتاما» كذلك تريد الذهاب لزيارة والدها الذي لم تفارقه منذ صغرها، لترى كيف يعيش الآن. ولكن كان سيدها يأتي كل يوم، فمن قلقها أن يتعكر مزاجه إذا جاء ووجدها غائبة، مرت الأيام يومًا بعد يوم وهي لا تستطيع الذهاب لزيارة والدها على الرغم من حرصها على ذلك. كان سيدها لا يبيت حتى الصباح. وفي الليالي التي يبكر فيها في العودة لبيته يرحل في حوالي الساعة الحادية عشرة. كذلك يأتي أحيانًا ويجلس في مواجهة مجمرة الحطب قائلًا إنه مر هنا للمكوث قليلًا وسيغادر سريعًا لأنه لديه اليوم ما يجب عليه عمله في مكان آخر، ويدخن تبغه ثم يرحل. ولا يوجد يوم يمكن فيه توقع عدم مجيئه للمنزل، ولذا لا تستطيع أن تعقد النية على الخروج بكل ثقة. ومع أنه من المفترض ألا توجد عقبة في الخروج أثناء النهار، لكن الخادمة التي لديها تعتبر طفلة صغيرة فلا يمكن الاعتماد عليها في أي شيء مطلقًا. بالإضافة إلى ذلك كانت «أوتاما» لا ترغب في الخروج نهارًا حتى لا يراها الجيران. لدرجة أنها في بدايات ذهابها إلى الحمام الشعبي أسفل منحدر «موئنزاكا»، كانت تجعل الخادمة الصغيرة تذهب أولًا لتفقد الوضع قائلة لها :

ـ اذهبي وانظري هل هو مزدحم الآن أم لا .

ثم تذهب خفية بعد ذلك .

ولكن في اليوم الثالث لانتقال «أوتاما»، التي هي بهذه الدرجة من الحياء والتهيب، إلى المنزل الجديد، حدث ما أوقعها في دهشة بالغة. فمع أنها كانت قد اتفقت في اليوم الأول من انتقالها مع بائع للخضراوات وبائع للأسماك أن يأتياها إلى المنزل ومعهما دفتر الحساب اليومي، إلا أن بائع الأسماك لم يأتِ في ذلك اليوم، فأرسلت «أوميه» الصغيرة إلى أسفل المنحدر، لتشتريَ شرائح من السمك المقطع أو ما شابه. لم تكن «أوتاما» ترغب في تناول الأسماك بشكل يومي. فوالدها الذي لا يشرب الخمر كان رجلًا لا يمانع في تناول أي طعام ما دام ليس منه ضرر على الجسم، ولذا تأصلت بها عادة تناول أي طعام متاح في المنزل مع الأرز. ولكن في أحد الأيام سمعت أحد الجيران في بيتهما في الحي الفقير يقول :

ـ تمر عدة أيام وأصحاب هذا المنزل لا يأكلون الأسماك .

ولذا كان شعورها أنه يجب عليها ألا تدع «أوميه» تحس بعدم الاكتفاء، فهذا إجحاف لسيدها الذي يبذل لها بسخاء، ولهذا جعلتها تذهب خصيصًا إلى محل الأسماك أسفل المنحدر لترى ماذا عنده. ولكن «أوميه» عادت ووجهها يمتلئ بالدموع. وعندما سألتها ماذا حدث كانت إجابتها ما يلي :

ـ عندما وجدت محلًّا للسمك ودخلته، كان يختلف عن المحل الذي يحضر لبيتنا الأسماك وكان صاحبه غائبًا وتوجد زوجته فقط. ويبدو أن زوجها عاد من ضفة النهر ووضع ما يمكن وضعه في المحل من

أسماك، ثم بدأ في التردد على منازل الزبائن للبيع .

كانت في المحل أسماك كثيرة تبدو طازجة وجديدة. وانتبهت «أوميه» إلى كومة من سمك «الشيم» الصغير ذي لون رائع وجذاب، وحاولت أن تسأل عن الثمن. فقالت لها الزوجة :

ـ أنتِ خادمة ولم أرك من قبل. من أي منزل أتيت؟

فشرحت لها «أوميه» أنها أتت من هذا المنزل. وعندها تحول وجه المرأة فجأة إلى العبوس الشديد، وقالت :

ـ أحقًّا؟ أنت مسكينة لا ذنب لك، ولكن ارحلي من هنا، وقولي لسيدتك ما يلي: «لا توجد في هذا المحل أسماك نبيعها لمحظية مرابٍ جشع ».

وبعد ذلك أشاحت بوجهها وظلت تدخن التبغ غير مبالية. ولأن «أوميه» كانت محبطة للغاية فلم تجد في نفسها رغبة في الذهاب لمحل أسماك آخر، وعادت للبيت مسرعة. ثم كررت أمام سيدتها ما قالته زوجة السماك بكل تفاصيله وهي تبدو مسكينة ومتأثرة .

شحب وجه «أوتاما» أثناء سماعها لذلك لدرجة أن شفتيها شحبتا أيضًا. ثم ظلت صامتة لفترة. تعقدت أنواع مختلفة من المشاعر داخل قلب تلك الفتاة التي لم تتعود على المجتمع بعد، وصنعت فوضى عارمة، ولم تستطع «أوتاما» أن تفك عقدة تلك الخيوط المتشابكة وتفحصها

بنفسها. فقد أضافت تلك المشاعر المضطربة ضغوطًا قوية على قلب تلك العذراء البريئة التي تم بيعها في سوق النخاسة، جعلت كل الدماء التي تجري في عروقها تتجمع في قلبها، لتفقد لون وجهها، وتجعل العرق البارد ينساب من ظهرها. وفي مثل هذا الوقت، يحدث أن الأمر الذي ليس له أهمية على الإطلاق هو الذي يخطر أولًا على الذهن، فقد فكرت «أوتاما» أول ما فكرت، أن «أوميه» بعد ما حدث، ستقول إنها لن تستطيع البقاء في هذا البيت بعد الآن .

أما «أوميه» نفسها فقد ظلت تحملق في وجه سيدتها الذي شحب لقلة جريان الدماء فيه، وفهمت بشكل ما أن سيدتها منزعجة للغاية، ولكنها لم تفهم سبب انزعاجها هذا. لقد عادت بعد أن أصابها الغضب ولكنها تنبهت الآن إلى أنه لا يوجد ما يؤكل في وجبة الغداء وأن بقاء هذا الأمر كما هو لا يمكن السكوت عليه. حتى النقود التي أعطتها لها سيدتها وخرجت بها منذ قليل ما زالت محشورة في حزام «الكيمونو» كما هي. ثم وقفت وهي تنظر لوجه «أوتاما» وقالت لها كأنها تواسيها :

ـ حقًّا لا يوجد مثل تلك البائعة المقيتة أبدًا. من ذا الذي يشتري سمكًا من مثل هؤلاء الناس؟ يوجد محل آخر بالجوار على مقربة من المعبد الصغير بعد محلهم، سأذهب في الحال وأشتري منه .

تأثرت «أوتاما» لحظة وفرحت أن «أوميه» تدافع عنها، فأومأت بلا وعي بالموافقة وهي تبتسم. فخرجت «أوميه» على عجل في اللحظة ذاتها .

ظلت «أوتاما» بعد ذلك على الحالة نفسها بدون حركة. تراخت قليلًا حالة الضغط النفسي التي كانت عليها، وبدأت تفيض تدريجيًّا من عينيها الدموع التي اندفعت، لذا أخرجت من كُم ردائها منديلًا ودفعتها به. ولا تسمع من صدرها إلا صوتًا وحيدًا هو صرخة: «وا حسرتاه! وا حسرتاه!». كان ذلك الصوت هو منبع حالة الفوضى العارمة سالفة الذكر. هي بالتأكيد لا تكره زوجة السماك التي لا تريد أن تبيع لها، ولا تشعر بالحسرة ولا بالحزن لأنها عرفت أنها أصبحت غير مرغوب فيها كمشتر، وبالطبع هي لا تحقد على «سويزو» بعد أن عرفت أن من أوكلتً إليه أمرها مراب، ولا تشعر بالحسرة ولا بالحزن لأنها مضطرة أن توكل أمرها إلى رجل مًثله. لم يكن السبب شيئًا من ذلك كله. بالطبع كانت «أوتاما» تعلم بشكل مبهم أن المرابي شخص قميء ومخيف ومكروه من الناس، ولكن لأن والدها لم يسبق له أن اقترض أموالًا من أحد إلا محل الرهونات، وحتى إن كان صاحب المحل قاسي القلب ولم يرهن لوالدها بالمبلغ الذي يريده، فمع ذلك كان والدها يقع في ضيق فقط، ولا يصل الأمر لدرجة أن يحقد على صاحب المحل لرفضه القاطع، ولذلك فحتى لو تعلمت أن المرابي مخيف، مثلما يتم تخويف الأطفال بالعفريت أو بالشرطي، فلم تكن تحمل شعورًا حادًّا بصفة خاصة تجاهه. إذا كان الأمر كذلك، فما هو يا ترى سبب الحسرة؟

في الواقع شعور الحسرة الذي تحمله «أوتاما» لم يكن موجهًا في شكل حقد تجاه المجتمع أو تجاه البشر. إذا كان مع ذلك يوجد شيء ما توجه حقدها إليه، فلربما يمكن القول إنها توجهه إلى قدرها ومصيرها. فمع أنها لم تفعل أي شر في حياتها، إلا أنه يجب عليها أن تتحمل

الاضطهاد من الآخرين. وهي تشعر بالألم والمعاناة من ذلك. ولذا فشعور الحسرة يشير إلى ذلك الألم. عندما أحست بأنها قد خُدعت وأُلقي بها في القمامة، وقتها قالت «أوتاما» لأول مرة: «وا حسرتاه!»، وبعد ذلك فقط عندما أصبح عليها أن تصير محظية لشخص آخر كررت عبارة «وا حسرتاه!»، والآن ليس الأمر مجرد أنها محظية، ولكن عندما علمت أنها صارت محظية لمراب مكروه من الناس، الحسرة التي تآكلت أركانها بعد أن دهمتها تروس «الزمن» بين الأمس واليوم، وبهت لونها بعد غسلها بماء «اليأس»، ظهرت تلك المرة واضحة المعالم والظلال، غامقة اللون، أمام بصيرة «أوتاما»، وإذا حاولنا أن ندلل عنوة بالمنطق لنعرف ماهية الشيء الذي جعل قلب «أوتاما» يكتئب، ربما سيكون ذلك هو أول ما نلاحظه .

بعد مرور فترة قامت «أوتاما» وفتحت خزانة الملابس وأخرجت من الحقيبة، التي يشبه جلدها جلد الفيل، صدرة من قماش أبيض كانت قد صنعتها بنفسها وربطتها حول خصرها، ثم تنهدت تنهيدة عميقة وذهبت إلى المطبخ. حتى لو كانت هذه الصدرة الحريرية مثل غيرها، ولكنها كانت أفضل ملابسها، ولذا فقد كانت لا ترتديها عند دخولها المطبخ. فقد كان سيدها يكره حتى مجرد اتساخ ياقة «اليوكاتا»، لدرجة أنها تثني منديلًا وتضعه حول رقبة الرداء التي تلامس قصة شعرها المجدولة .

كانت «أوتاما» وقتها قد هدأت بالفعل واسترخت. فاليأس هو أكثر التأثيرات التي خبرها قلب تلك المرأة. لو كانت روحها تذهب في هذا الاتجاه، فكأنها مثل الآلة التي قد وضع لها زيت، كانت عادتها أن

تتحرك في سلاسة ويسر .

الفصل العاشر

في إحدى الليالي جاء «سويزو» وجلس أمام الجهة الأخرى من مجمرة الحطب. كانت «أوتاما » من أول ليلة عندما ترى «سويزو» داخلًا إلى المنزل تجهز وسادة وتضعها في الجهة المقابلة من المجمرة ليجلس عليها . فيجلس «سويزو» متربعًا على تلك الوسادة، ويتجاذب معها أطراف الحديث عن أحواله وهو يدخن. وكانت «أوتاما» تحس بعدم وجود شيء تفعله، فتجلس في مكانها المعتاد تلمس حافة المجمرة، أو تعبث بملقاط حطب النار، وترد عليه بكلمات قليلة في خجل .
ويجعلك وضعها ذلك تعتقد أنها لو جلست بعيدًا عن نار المجمرة فستحتار في إيجاد شيء تفعله. لدرجة يمكن القول معها إنها تستخدم مجمرة الحطب كدرع تحمي صدرها قليلًا في مواجهة عدو. وتنسى «أوتاما» نفسها فجأة أثناء اندماجها لفترة في الحديث فتتحدث طويلًا. ولكن ذلك على الأغلب لم يكن يزيد على خبرتها الضئيلة بمشاعر الفرح والغضب والحزن والمتعة خلال السنين التي عاشتها مع والدها بمفردهما. كان «سويزو»، أثناء سماعه لمحتوى ذلك الحديث، كأنه يستمع إلى غناء حشرة «جدجد الجرس» قد اعتنى بها في قفص، يسمع صوتها الجميل ويبتسم بلا وعي. وعندها تنتبه «أوتاما» فجأة إلى نفسها وهي تتحدث بهذا الشكل، يحمر وجهها، وتختصر حديثها بسرعة، وتعود إلى حالتها السابقة في المشاركة في الحديث بأقل قدر من الكلمات. كانت كل كلمات «أوتاما» وتصرفاتها في غاية العفوية والبراءة، وإذا نظرنا لها بعيني «سويزو» المعتاد على فحص الأمور من منظور ما، بعين في غاية الحدة والصرامة، فهو يراها وكأنه ينظر إلى ماء

حوض في غاية النقاء والطهر، يمكن النظر بحرية إلى كل ركن فيه بوضوح من دون أن يعيقه أي عائق . كانت متعة «سويزو» بهذا الحديث وجهًا لوجه تشبه استمتاعه بالاسترخاء وتدفئة الجسم في حمام به ماء ساخن بدرجة مناسبة جدًّا، بعد يوم عمل شاق تعبت فيه يداه وقدماه . ولأن تذوق هذه المتعة كان بالنسبة لـ«سويزو» تجربة جديدة تمامًا، فمنذ تردده على هذا المنزل، وكأنه وحش بريٌّ قد ألف البشر، اكتسب «سويزو» ثقافة من نوع ما من دون وعي منه .

وبعد مرور ثلاثة أو أربعة أيام، عندما جلس متربعًا كما تعود في مواجهة مجمرة الحطب، انتبه «سويزو» تدريجيًّا إلى أن «أوتاما» ليست في حالة هادئة، فرغم عدم وجود شيء محدد تفعله، فإنها تقف ثم تتحرك ثم تعود. لقد كانت تستحي بالفعل منذ البداية، فلا تجعل عينيها تلتقيان بعينيه ولا ترد سريعًا على أسئلته، ولكن الليلة على وجه الخصوص يبدو من سلوكها أنه يوجد أمر ما .

قال «سويزو» وهو يضع التبغ في الغليون :

ـ ماذا بكِ! هل تفكرين في شيء؟

قالت «أوتاما »:

ـ لا شيء .

وهي تفتح خصيصًا درج مجمرة الحطب المقفول، وتنظر داخله من

دون أن يوجد شيء تبحث عنه، ثم نظرت بعينيها الواسعتين إلى «سويزو»، عينيها اللتين لا تعرفان سحر الحكايات القديمة، ولا تكادان تستطيعان أن تخفيا داخلهما أسرارًا كبيرة .

لم يستطع «سويزو» إلا أن ينشرح رغمًا عنه، فيزيل العبوس الذي كان قد ملأ وجهه رغمًا عنه أيضًا. وقال :

ـ ليس الأمر كما تقولين إطلاقًا. فكل شيء مكتوب على وجهك بدقة. مكتوب: «أنا في ورطة، ماذا أفعل؟ ماذا أفعل؟ ».

على الفور احمر وجه «أوتاما» من الخجل، ثم ظلت صامتة لفترة. كانت تفكر كيف تقول ما تريد قوله. ويبدو أن حركة تلك الآلة دقيقة الصنع كانت واضحة ومكشوفة .

ـ لقد مرت بالفعل فترة طويلة جدًّا وأنا أفكر في ضرورة الذهاب إلى بيت والدي لزيارته .

لا يمكن توقع ماذا ستفعل الآلة دقيقة الصنع حتى لو أمكن رؤية حركتها. كما أن الحشرات تمتلك خاصية مشابَهة البيئة لتحمي نفسها من الكائنات الأكبر والأقوى منها، كذلك الأنثى تكذب للغرض نفسه .

ضحك وجه «سويزو» وقال لها بنبرة من يعنف طفلًا :

ـ ما هذا؟ على الرغم من أنه انتقل للسكن في «حافة البركة» على بُعد

مرمى حجر منك، ألم تذهبي بعد للقائه؟ لو فكرنا في قصر «إيواساكي» المواجه، فيمكن اعتباره يسكن معك في المكان نفسه. الآن لو أردت الذهاب لرؤيته لاستطعتِ ذلك، ولكن على أي حال من الأفضل فعلَ ذلك في الصباح .

نظرت «أوتاما» التي كانت تحرك الرماد بسيخ النار إلى وجه «سويزو» وكأنها تستريح من فعل ذلك :

- ولكن السبب هو التفكير في أمور عدة .

- كفى مزاحًا، لا يستدعي أمر كهذا أي تفكير. إلى متى ستبقين طفلة صغيرة؟

كان الصوت هذه المرة حنونًا .

انتهى هذا الحديث عند هذا الحد. وفي النهاية قال «سويزو» لو كان الأمر مزعجًا لهذه الدرجة، فيمكنه المجيء بنفسه في الصباح واصطحابها إلى بيت والدها على بعد أربعة أو خمسة طرق .

كانت «أوتاما» مؤخرًا تفكر بأشكال مختلفة. عند لقاء سيدها، تجده أمامها إنسانًا يُعتمد عليه، إنسانًا لطيفًا ورحيمًا، تفكر بدهشة لماذا يختار مثل هذا الرجل عملاً ممقوتًا مثل عمله؟ ثم تفكر في أشياء مستحيلة مثل ألا يمكن أن تتناقش معه وتجعله بأي شكل يختار عملاً آخر أكثر احترامًا؟ ولكنها لم تعتقد بعد ولو قليلاً أنه شخص كريه .

أما «سويزو» فقد عرف بشكل ضئيل للغاية أن «أوتاما» تخفي أمرًا ما في أعماق قلبها، وحاول أن يجرب الكشف عنه، ولكنها تقول مثل الأطفال: «لا يوجد شيء». وبعد تخطي الساعة الحادية عشرة ليلًا وعند مغادرته لبيت «أوتاما»، وعندما يفكر وهو يسير هابطًا بروية منحدر «موئنزاكا»، يبدو له أن شيئًا ما لا يزال مترسبًا في تلك الأعماق. لا يمكن لعيني «سويزو» الحادتين الخبيرتين بعديد من الأمور أن تجعلا هذا الأمر يفلت منهما. جرب «سويزو» أن يطلق لخياله العنان ليتوقع ويخمن أنه على الأقل يوجد شخص ما أبلغ «أوتاما» شيئًا جعل مشاعرها تصبح مستاءة، ولكن مع ذلك انتهى الأمر وهو لا يعرف من الذي قال، وماذا قال .

الفصل الحادي عشر

في الصباح التالي، عندما وصلت «أوتاما» إلى منزل والدها في «حافة البركة»، كان قد انتهى لتوه من تناول وجبة الإفطار. أوتاما، التي لا تستغرق وقتًا طويلًا في وضع مساحيق التجميل، خرجت مسرعة وهي قلقة من أن تكون بكرت أكثر من اللازم. ولكن العجوز الذي يصحو دائمًا مبكرًا كان قد كنس أركان مدخل الباب، وجعله نظيفًا جميلًا، ورش ماء، ثم غسل يديه وقدميه وارتقى فوق حصير «التاتامي» الجديد وأنهى لتوه وجبة الإفطار وحيدًا كالمعتاد .

مع أن محلًّا لبنات «الجيشا» أُنشئ مؤخرًا على بعد بيتين أو ثلاثة، وأحيانًا يكون هناك إزعاج في المساء، إلا أن البيتين على الجانبين يشبهان بيته ومغلقان بأبواب شبكية، وفي أثناء الصباح يكون الجوار هادئًا وساكنًا تمامًا. وعند النظر من الشرفة الخارجية، ومن بين فروع أشجار الصنوبر يمكن رؤية أفرع أشجار الصفصاف التي تهتز قليلًا مع نسمات الصباح المنعشة، وتوجد على الجانب الآخر، أوراق نبات اللوتس النابتة على كامل سطح البركة، ثم وسط تلك الخضرة تُرى كذلك زهور قد تفتحت هذا الصباح تبدو كأنها حمراء باهتة في أماكن متفرقة. يقال إن البيت المواجه ناحية الشمال يكون باردًا شتاءً ولكن يستطاب السكنى فيه صيفًا .

منذ أن وعت «أوتاما» على الدنيا، وهي تضع الخطط لما يجب أن تفعله من أجل راحة والدها لو قدر لها ذلك، وكانت تفكر في العديد من هذه

الأشياء، ولكنها عندما ترى الذي أمام عينيها الآن، يمكن القول إن أمنية حياتها قد تحققت بالفعل، ولم تكن تقدر على إخفاء شدة سعادتها لذلك. ولكن تلك السعادة كانت تختلط معها نقطة واحدة من المرارة. لو لم تكن تلك النقطة موجودة، فإلى أي درجة ستكون سعيدة بلقاء والدها هذا الصباح؟ تشعر بالغيظ العميق تجاه معاكسة هذه الدنيا لها .

عندما فُتح باب البيت الذي لم يفتحه زائر من قبل، تنبَّه والدها الذي انتهى من الطعام ووضع عصوي الأكل، ويشرب من كوب الشاي الأخضر، فوضع الكوب، ونظر في اتجاه مدخل البيت. وعندما سمع صوت «أوتاما» تصيح: «أبي» وهي بعد محجوبة وراء الجدار المزدوج المصنوع من العيدان الخشبية، تغلب على رغبته في أن يقف على الفور ويخرج لاستقبالها، وظل جالسًا في مكانه لا يتحرك. ثم انشغل في التفكير بحثًا في داخله عما هي الكلمات التي يوجهها لها. فكر مثلاً أن يقول لها: «من الجيد أنك لم تنسي أباك بعد»، ولكنه عندما رأى ابنته قد دخلت وجاءت بجواره متلهفة للقائه وقد بدا عليها الاشتياق له، لم يستطع فمه أن ينطق بتلك الكلمات، وظل ينظر إلى وجه ابنته صامتًا وهو غير راضٍ عن نفسه بسبب فعلته تلك .

يا لها من ابنة جميلة! في الأحوال العادية كانت مصدر فخره، ولم يجعلها تفعل أي شيء عنيف أثناء فقرهما، وحرص على أن تظل جميلة ونقية، ولكن عند مرور حوالي عشرة أيام من دون أن يراها، أحس وكأنها ولدت من جديد. لم تكن «أوتاما» تترك أوساخًا تتراكم على بشرتها مهما كانت حياتها مليئة بالأعمال، وكأنه شيء غريزي فيها. ولكن ما

زالت صورة «أوتاما» عنده كالجوهرة غير المصقولة، حتى مع المقارنة بين الأمس واليوم حيث أصبحت تحرص بوعي على صقل جمالها. حتى لو كانت نظرة أب إلى ابنته، أو نظرة رجل عجوز إلى فتاة شابة، فيظل الجميل جميلًا. ثم تحت الجبروت الطاغي للجمال الذي يلين القلب البشري، لا يستطيع حتى لو كان والدًا أو عجوزًا إلا الخضوع لتلك القوة .

كانت نية العجوز الذي صمت متعمدًا، أن تكون ملامح وجهه عابسة، ولكن رغمًا عنه تهللت أسارير وجهه في النهاية. ولم تستطع «أوتاما» لفترة من الوقت نطق الأمور العديدة التي فكرت في التحدث إليه عنها بعد انتقالها إلى بيئة جديدة، وأخذت تنظر إلى وجه أبيها بفرح وسرور، لأنها مع رغبتها الشديدة في مقابلته، ظلت عشرة أيام لم تلقه، وهي التي لم تفارقه يومًا واحدًا منذ ولادتها وحتى الآن .

ظهرت الخادمة من المطبخ، وقالت في نبرات سريعة عالية :

ـ هل يمكنني أن أرفع صينية الطعام؟

«أوتاما»، التي لم تعتد بعد عليها، لم تستطع أن تفهم ماذا قالت. لم يكن يوجد أي تناسق أبدًا بين شعر رأسها الصغير الملفوف حول مشط، والوجه الممتلئ الذي يوجد تحته. وكذلك كان هذا الوجه يراقب «أوتاما» بلا استحياء وبتعجب شديد .

قال العجوز وهو يدفع الطاولة إلى الأمام :

ـ أسرعي برفع الطاولة وأحضري شايًا جديدًا، الشاي ذا العبوة الزرقاء الذي على الرف .

أخذت الخادمة الطاولة ودخلت إلى المطبخ .

قالت «أوتاما »:

ـ لا، ليس بالضرورة أن أتناول ذلك الشاي الفاخر .

قام العجوز وقال :

ـ لا تمزحي. بل سأقدم لكِ حلوى مع الشاي .

ثم أخرج من الخزانة علبة معدنية وأفرغ مقرمشات البيض في صندوق الحلوى الذي أمامها .

ـ هذه الحلوى مصنوعة في منزل خلف محل «هوتان» تمامًا. هذا المكان هنا رائع في التسوق. في السوق الجانبي بالقرب منا يوجد كذلك محل «جوئن» الذي يبيع طعام «تسوكوداني »(*******).

ـ حقًّا! أتذكر عندما ذهبت معك يا أبي لسماعه يقول «الراكوجو »(********) في «ياناجيهارا »(********) ، تحدث عن وليمة أو ما شابه، وقال: «إن طعمها في غاية الجودة، مثل طعم «تسوكوداني» الذي أبيعه في محلي»، جاعلًا الجميع يضحك؟ إنه حقًّا عجوز سعيد. عندما

يرتقي إلى المقعد العالي يلف مؤخرته الضخمة فجأة ويجلس. وهذا يجعلني لا أتمالك نفسي من الضحك. من الأفضل لك أنت أيضًا يا أبي أن تسمن إلى هذا الحد .

قال العجوز وهو يقدم المقرمشات إلى ابنته :

ـ لا، إلا هذا، إلا أن أكون في سمنة «جوئن »!

في أثناء ذلك جاء الشاي، وتحدث الأب والابنة حديثًا لا يربطه شيء وكأنهما كانا معًا حتى الأمس وقبل الأمس من دون أن يفترقا. قال العجوز ما يلي فجأة وكأنه يقول شيئًا صعب القول :

ـ كيف حالك؟ هل يأتي إليك سيدك من وقت لآخر؟

بعد أن قالت «أوتاما»: «نعم» فقط، ظلت قليلًا في حيرة كيف ترد. فليس ما يأتيه «سويزو» يُسمى من وقت لآخر قط، بل يأتي كل ليلة، ولا يوجد يوم لا يأتي فيه. لو كانت قد ذهبت لبيت عرسها وكان السؤال: «هل العلاقة جيدة؟» لربما كانت تستطيع الإجابة بوجه مشرق صاف: «إن كل الأمور على خير ما يرام اطمئن واسترح». ولكن إذا نظرت إلى وضعها الحالي هذا، فالقول إن سيدها يأتي كل يوم أمر تحس تجاهه ببعض التأنيب ولذا يصعب قوله. فكرت «أوتاما» لفترة، ثم قالت :

ـ الوضع جيد، ويحسن بك يا أبي أن تطمئن تمامًا .

قال العجوز :

ـ إذا كان الأمر كذلك فلا بأس .

ولكنه شعر في مكان ما بعدم الرضا عن إجابة ابنته. لقد صار السائل والمجيب يقولان الجمل مغلفة بالغموض بلا وعي . لقد صار الاثنان اللذان كانا فيما مضى وحتى الآن لا يحملان فيما بينهما أي نوع من الأسرار ويتصارحان بكل شيء، على الرغم من كرههما لذلك، يجب عليهما التحدث معًا كالغرباء بحديث مؤدب يبدو به نوع ما من الأسرار. حتى المرة التي حدثت ونُصب عليهما من الزوج الشرير، حتى لو شعرا بانهيار كرامتهما أمام الجيران، فقد كان إحساسهما القلبي كأب وابنته أن الخطأ بأكمله يقع على الزوج، لذا لم يكن لديهما أي حرج أو خجل من الحديث لبعضهما البعض. ولكن هذه المرة تختلف، فبعد أن اتخذ الأب وابنته ذلك القرار الذي اتخذاه وسارت الأمور على ما يرام وأصبحا في معيشة رغدة، ذاقا طعم الحزن في وجود ظلال مظلمة في الحوار الحميم بين الأب وابنته. بعد مرور فترة أحس الأب أنه يريد سماع إجابة مفصلة أكثر وواقعية من فم ابنته، فجرب أن يسألها من ناحية أخرى قائلًا :

ـ تُرى أي نوع من الرجال هو؟

قالت «أوتاما» وهي تميل برأسها قليلًا :

ـ حسن .

ثم أضافت بنبرة وكأنها تتحدث لنفسها :

ـ لا أعتقد بأي حال أنه شخص شرير. لم تمر بعد أيام كثيرة، ولكنه لا يخاطبني بكلمات فظة أو عنيفة .

قال العجوز وملامح وجهه لا تدل على الاقتناع :

ـ حقًّا! ليس هناك أي افتراض أنه رجل شرير !

نظرت «أوتاما» إلى وجه والدها، وشعرت فجأة بخفقان قلبها. ومع تفكيرها أن الآن هو أفضل وقت لمحادثة والدها بما أتت اليوم لتحدثه عنه، ولكن لأنه من الصعب عليها أن تسبب مزيدًا من الألم والمعاناة لوالدها، خاصة بعد أن فعلت كل ما فعلت لتجعله مرتاحًا ومطمئنًّا أخيراً في حياته. ولأنها فكرت في ذلك، تحملت «أوتاما» شعور القلق من اتساع الفجوة بينها وبين والدها، وغيرت مجرى الحديث إلى شيء آخر بعد أن قررت في نهاية الأمر أن تعود بما جاءت به من سر كما هو لتضيفه إلى الأسرار الكامنة في منطقة الظل، من دون أن تفصح عنه .

قالت «أوتاما »:

ـ طبعًا، فهو شخص قد فعل العديد والعديد من الأمور ليصبح بشكل عصامي من الأغنياء، فقد كنت في غاية القلق لعدم معرفتي بطبيعته إلى أي درجة. على كل حال، كيف أحسن قول هذا يا ترى؟ حسنًا، هو شخص يحمل صفات الرجولة الحقة. في قرارة نفسه هو كذلك، ولكن

لا أفهم لماذا يحاول أن يبذل جهده من خلال قوله وفعله في إظهار ذلك الأمر للآخرين. ولكن حتى لو أنه يتعمد ذلك مسبقًا ألا يحسن بنا تجاهل التفكير في ذلك يا أبي؟

ورفعت نظرها لترى وجه أبيها .

مهما كانت المرأة صادقة، في هذه الحالة بخلاف الرجل، لا تعاني كثيراً من إخفاء ما تحمله في قلبها من أمور، وقول شيء آخر. ثم في هذه الحالة ربما يمكن القول إن كثرة كلام المرأة وحديثها الكثير، يعتبر أكثر مشاعر المرأة صدقًا .

ـ حسنًا ربما كان الأمر كذلك. ولكن ماذا بك؟ ألا تتحدثين بطريقة كلام وكأنك لا تثقين في سيدك؟

ابتسمت «أوتاما »:

ـ لقد صرت تدريجيًّا أكبر مما كنت في السابق يا أبي. وأنوي ألا أكون بعد الآن هدفًا لأن يسخر مني أحد . ما رأيك ألم أصبح قوية الشكيمة؟

شعر الأب أن ابنته التي كانت دائمًا تعامله برفق، قد وجهت له بشكل نادر نصل حربة، فنظر إلى ابنته بوجه يبدو عليه القلق :

ـ نعم. لقد عشت في هذه الدنيا يسخر مني الناس باستمرار،
ويعاملونني كثيراً على أنني غبي. ولكن النفس أريح لها أن تُخدع من أن

تَخدع. يجب على المرء ألا يتعامل بجحود تجاه الناس في أي تجارة أو عمل يقوم به، وأن يحرص على من أسدوا له جميلًا .

ـ جيد يا أبي. ألم تكن تقول لي دائمًا إنني سليمة الطوية؟ أنا سليمة الطوية تمامًا. ولكن الأمر الذي أفكر فيه بقوة مؤخرًا، هو الرغبة العارمة في التخلص من الانخداع في الناس. مقابل ألا أكذب على أحد وألا أخدع أحدًا، أنوي ألا يخدعني أحد .

ـ أتريدين القول إنك لن تثقي فيما يقوله سيدك كما هو؟

ـ أجل هو كذلك. فهذا الرجل يعتقد أنني طفلة صغيرة. ولكن لأنه شخص بارع جدًّا، فلا حيلة في أن يعتقد ذلك، ولكن أنا لست طفلة بالدرجة التي يعتقدها .

ـ إذن، ماذا؟ هل تقولين إنك اكتشفت كذبًا فيما قاله سيدك حتى الآن؟

ـ أجل يوجد. ألم تكرر العجوز القول مرات ومرات: «إن زوجة ذلك الرجل توفيت تاركة له أطفالهما يرعاهم. ولذا عندما تخدمينه إن لم تكوني زوجة شرعية له، فستكونين أقرب إلى زوجة شرعية. ولكن بسبب نظرة المجتمع لا يستطيع أن يظهر على الملأ ما كان يخفيه في السر»؟ ولكن هل تعلم يا أبت أن زوجته على قيد الحياة؟ بل هو الذي قال لي ذلك بمنتهى الهدوء. لَقد ألجمتني المفاجأة .

اتسعت مقلتا العجوز :

ـ أحقًّا هذا؟ كان ذلك، كما هو متوقع، مجرد تزيين للكلام بالكذب من المرأة .

ـ ولذلك فهو يخفي أمري عنها ويجعله سرًّا من أعظم الأسرار. إذا كان بدرجة أن يكذب على زوجته فهو لن يقول لي الحقيقة على الدوام. يجب أن أحترس منه وأنتبه لكل ما يقول .

نسي العجوز حتى أن يضع عقب السيجارة التي يدخنها، وظل شاردًا يتأمل ابنته التي كبرت فجأة، فقالت ابنته وكأنها تذكرت أمرًا ما فجأة :

ـ اليوم سأكتفي بهذا وأعود الآن. إذا رأيتك مرة بهذا الشكل تذهب المعوقات كلها، ومن الآن سآتي لأراك يا أبتِ كل يوم تقريبًا. في الواقع لقد ظللت محرجة من المجيء حتى يقول لِيَ سيدي: «اذهبي». وأخيراً ليلة أمس استأذنت منه، وجئت هذا الصباح. الخادمة التي جاءت إلى بيتي ما زالت طفلة صغيرة، حتى إعداد طعام الغداء لا تقدر عليه ما لم أرجع أنا وأساعدها فيه .

ـ إذا كنت قد جئت بعد أن استأذنت من سيدك أليس من الأفضل أن تعودي بعد تناول الغداء معي؟

ـ لا، هذا أمر خطر. سأعود في القريب العاجل يا أبي. وداعًا .

في اللحظة التي وقفت فيها «أوتاما»، خرجت الخادمة مسرعة لتصلح لها الحذاء لتنتعله. حتى المرأة التي لا تبدو عليها أية كياسة لا تستطيع

إلا أن تراقب وتفحص أي امرأة أخرى تلتقي بها ولو صدفة. يقول أحد الفلاسفة: إن المرأة تنظر إلى امرأة أخرى حتى لو قابلتها صدفة في الطريق وكأنها منافسة لها. حتى المرأة التي خرجت من منطقة ريفية جبلية لتوها والتي تغمس إصبعها في صحن الحساء، أظهرت اهتمامًا بأمر «أوتاما» الجميلة، ويبدو أنها كانت تقف تتسمع لحديثها .

قال العجوز وهو جالس كما هو :

ـ حسنًا. من الأفضل أن تأتي ثانية. أبلغي تحياتي للسيد .

أخرجت «أوتاما» من بين لفات حزام الساتان اللامع الأسود حافظة النقود الورقية الصغيرة، ولوت منها عدة ورقات وأعطتها إلى الخادمة، ثم لبست قبقابها الخشبي ورحلت خارجة من الباب الحديدي .

اندهشت «أوتاما» من خروجها بحيوية ونشاط من الباب الذي دخلته وفي نيتها البكاء مع أبيها ـ سندها الوحيد ـ وهي تشتكي له ما تلقاه من تعاسة القلب وآلامه. فقد كانت تريد أن تُري والدها ـ الذي اطمأن أخيراً بعد قلق، ولا ترغب في جعله يعاني معاناة لا جدوى منها ـ أنها قوية وسليمة، ولكن أثناء اجتهادها في عمل ذلك، وكأن شيئًا ما كان نائمًا داخلها استيقظ، وذاتها التي كانت حتى ذلك الحين تعتمد على الآخرين، أصبحت بدون وعي مستقلة بنفسها، ثم سارت «أوتاما» على حواف بركة «شينوبازو» بوجه بشوش مشرق .

مع أن الشمس التي انحرفت بعيدًا جدًّا عن تلة «أوينو» أضاءت فجأة

وباتساع وصبغت مبنى معبد «بنتن» في «ناكاجيما»، إلا أن «أوتاما» كانت تسير بدون أن ترفع مظلة الوطواط الصغيرة التي أحضرتها معها .

الفصل الثاني عشر

في إحدى الليالي عندما عاد «سويزو» من «موئنزاكا » إلى بيته، كانت زوجته مستيقظة بمفردها بعد أن نام الطفلان . دائمًا بعد أن يناما، تكون هي أيضًا مستلقية بجوارهما، ولكنها كانت تلك الليلة تجلس مستيقظة تنظر للأرض، وعلى الرغم من معرفتها بدخول «سويزو» داخل الناموسية فإنها لم تحاول حتى الالتفات ناحيته والنظر إليه .

كان فراش «سويزو» موجودًا في عمق الناموسية بجوار الحائط على بعد قليل منها. وبجوار وسادته يوجد وثار مفروش، وأدوات إعداد الشاي وتدخين التبغ. جلس «سويزو» على الوثار وقال بصوت حنون وهو يشعل التبغ مدخنًا إياه :

ـ ماذا حدث؟ ما زلت مستيقظة ولم تنامي بعد؟

ظلت الزوجة صامتة .

لم يحاول «سويزو» التنازل مرة ثانية. فإذا لم تستجب لمحاولته في التصالح، رأى أن تلك هي نهاية تنازلاته، فتعمد تدخين التبغ بلامبالاة .

رفعت الزوجة رأسها بحركة مفاجئة ونظرت إلى «سويزو »:

ـ أين كنت حضرتك حتى هذا الوقت من الليل؟

منذ أن جلب خدمًا للعمل في البيت، أصبحت طريقة حديث زوجته تتهذب بالتدريج، ولكن عندما تصبح في مواجهته وجهًا لوجه، تصير وقحة. وبالكاد أبقت على كلمة «حضرتك ».

ألقى «سويزو» نظرة سريعة حادة على زوجته، ولكنه لم يقل شيئًا. حتى لو عرف أن زوجته حصلت على معلومات ما، فهو لم يستطع بعد معرفة حجم ومدى تلك المعلومات، لذا فهو لا يقدر على قول شيء.
فـ«سويزو » ليس من الرجال الذين يحكون ما يعرفون بلا ضابط ولا رابط ويعطون الطرف الآخر ما يملكون هم من معلومات .

ـ انتهى الأمر، أنا أعرف كل شيء .

كان صوتها حادًّا. وكان في نهايته يكاد يتحول إلى بكاء .

قال بطريقة تدل على أنه أُخذ على حين غرة بأمر مفاجئ :

ـ لا تنطقي شيئًا غريبًا. ما هذا الذي تعرفينه؟

وكان صوته مرهقًا في محاولة أن يكون حنونًا .

ـ أمر فظيع. أنت بارع في التظاهر بعدم المعرفة .

يبدو أن هدوء زوجها على العكس استفزها بشكل قوي، فقد صار صوتها متقطعًا إلى شظايا متناثرة، وهي تمسح بملابسها الداخلية

الدموع التي انسابت متدفقة .

ـ يا لها من ورطة! هل لك أن تقولي لي ما الأمر؟ فأنا لا أقدر على تخمينه مطلقًا .

ـ أحقًّا لا تعرف؟ أنا أقول لك أخبرني أين كنت هذه الليلة. يا له من فعل هذا الذي فعلته. تقول لي لديَّ أعمال وأشغال، ثم تقتني محظية !

التصقت خصلة شعر أفلتت من قصة شعرها المتفككة بوجهها المتورد ذي الأنف المسطح الذي بدا كأنه مسلوق بسبب الدموع. وحاولت فتح عينيها الضيقتين المبتلتين بصعوبة على اتساعهما ناظرة إلى «سويزو»، ثم ظلت تزحف على يديها وركبتيها مقتربة منه، وقبضت بعنف على يده الممسكة بسجائر «تنجو» الذهبية المشتعلة .

قال «سويزو »:

ـ كُفي عن هذا !

ثم دفع يدها وأطفأ جمرات السجائر التي تبعثرت فوق حصير «التاتامي ».

قبضت الزوجة بعد أن شهقت بالبكاء على يد «سويزو» مرة ثانية .

ـ أين وفي أي مكان يوجد من هو مثلك؟ مهما قلنا إن المال أصبح

وفيراً، فأنت وحدك تأخذ هيئة السيد المحترم، ولم تفكر أن تصنع رداء «كيمونو» واحدًا لزوجتك، وتجعلها هي فقط تعتني بالأطفال، وتمتلئ أنت بالغرور لتصاب بجنون المحظيات !

ـ ألم أقل كُفي عن قول هذا؟ !

دفع «سويزو» مرة أخرى يد زوجته، وقال بصوت غير واضح ولكنه أودع فيه قوة :

ـ سيستيقظ الطفلان. علاوة على أن صوتك يصل لغرفة الخادمة .

تقلب الطفل الأصغر على جنبه الآخر، وقال شيئًا أثناء حلمه، فخفضت الزوجة صوتها على الفور بلا شعور قائلة :

ـ ماذا عليَّ أن أفعل يا ترى؟

وهذه المرة دفنت وجهها في صدر «سويزو» وظلت تبكي بلا صوت .

ـ الأمر لا يستدعي أن تفعلي شيئًا. لقد خدعك شخص ما بسبب طيبتك. من قال لك: «محظية»، و«اقتناء في بيت»، إلى آخر هذا الكلام؟

قال «سويزو» ذلك وهو ينظر إلى شعرها المتفكك وهو يهتز، وظل يفكر في أمر غير مهم: «لماذا تصر امرأة دميمة على قصة شعر تقليدية

لا تناسبها؟»». وفي الوقت الذي صار فيه الشعر تدريجيًّا يهتز بدرجة أقل، أحس «سويزو» بضغط الثديين الكبيرين اللذين أعطيا كل طفل ما يكفيه من طعام، على قفصه الصدري وكأنه يحتضن حقيبة الماء الساخن، وظل «سويزو» يكرر :

ـ من الذي قال لك؟

ـ لماذا يهمك من الذي قال؟ فتلك هي الحقيقة .

قالت الزوجة ذلك وازدادت قوة ضغط ثدييها .

ـ لأنها ليست الحقيقة، لذا يهمني القائل. قولي من قال لك؟

ـ لا مانع عندي من قول ذلك. إنها زوجة بائع السمك .

ـ ماذا تقولين؟ لا أفهم كلامك الذي يشبه صوت الغرير. زوجة من؟

أبعدت الزوجة وجهها عن صدر «سويزو» وضحكت ضحكة غيظ :

ـ أقول لك إنها زوجة بائع السمك .

ـ ماذا؟ تلك المرأة؟ نعم أنا توقعت أنها هي على الأرجح .

نظر «سويزو» بعينين حنونين إلى زوجته الغاضبة المتذمرة، وأشعل النار

بهدوء في سيجارة «تنجو» ذهبية .

ـ كثيراً ما يذكر الصحافيون في جرائدهم ما يُسمى «تحكمات المجتمع»، ولكن لم يسبق لي رؤية «تحكمات المجتمع» هذه. ولكن ربما على ما يبدو أن تلك النمامة الشمطاء هي المقصودة. فهي تتدخل فيما لا يعنيها من أمور الجيران جميعًا. هل يعقل أن تصدقي ما تقوله امرأة كتلك؟ أنا سأقول لك الآن حقيقة الأمر، فاستمعي جيدًا .

وكأن الضباب قد أغشى بثقله على رأس الزوجة، فهي مذهولة شاردة، ولكنها حرصت على إيقاظ حاسة الشك مخافة أن تُخدع. ورغم ذلك فهي تنظر إلى وجه «سويزو» بحماس وحرارة وتستمع لما يقوله باجتهاد وإصغاء. دائمًا ما يستخدم «سويزو» الكلمات الصعبة التي يقرأها في الجرائد وتحس الزوجة بتخلفها وتستسلم لها على الرغم من عدم فهمها لمعانيها، وهو ما حدث الآن عندما قال لها «تحكمات المجتمع»، إلخ .

يدخن «سويزو» من وقت لآخر التبغ وينفخ الدخان، وكما هو متوقع، ينظر بثبات إلى وجه زوجته وكأنه يبث إشارات غير مباشرة بقوله ما يلي :

ـ الموضوع إياه، أنت أيضًا تعرفينه، أليس كذلك؟ وقتما كانت الجامعة ما زالت هنا، الشخص الذي يُسمى «يوشيدا» والذي كان يأتي لمنزلنا كثيراً، ألا تتذكرينه؟ من كان يضع على عينيه نظارة بإطار ذهبي اللون،

ويرتدي زيًّا تقليديًّا رقيقًا. هو حاليًّا يعمل في مستشفى في منطقة «تشيبا»، وخلال فترة عامين أو ثلاثة أعوام كنت أحاول أن أحصِّل منه فواتيري ولكن بلا جدوى. وتوجد امرأة كانت على علاقة به منذ كان يسكن في سكن الطلاب، وكانت حتى وقت قريب تستأجر بيتًا في حي «ناناماجاري». كان في البداية يرسل لها بانتظام أموالًا شهرية، ولكن منذ بداية هذا العام لم يعد يرسل أموالًا ولا حتى خطابات. فجاءتني المرأة وطلبت مني أن أتوسط بينهما. ربما تفكرين لماذا تعرفني المرأة، ولكن السيد «يوشيدا» في مرات كثيرة عندما كان يأتي إلى محلي كان يخاف من أن يراه أحد، فدعاني مرة إلى بيت «ناناماجاري» ليتحدث في موضوع تعديل تواريخ الصكوك وأسماء أصحابها. منذ ذلك الوقت وتلك المرأة تعرفني. بالطبع كان الطلب مزعجًا لي، ولكني قبلت التوسط بينهما واستغلال الفرصة في الذهاب لأطلب منه مالي. ولكن كان الموضوع معقدًا ولا يحل بسهولة . والمرأة تطلب بإلحاح. وأنا أعاملها كما لو كنت وقعت في شباك شخص مخبول لا يعقل. ولكن ما زاد عن الحد هو أنها قالت إنها تريد أن تنقل سكنها إلى مكان نظيف وصغير بإيجار أرخص وإنها تريد مني مساعدتها في ذلك، فساعدتها في أن تنقل السكن إلى المنزل الذي كان محلًّا للرهونات في منحدر «كيريتوشي». وما بين هذا وذاك كنت حتى وقت قريب أمر ببيتها بين الحين والآخر. ومرة قمت بتدخين سيجارتين أو ثلاث من التبغ، فبدأ الجيران يكثرون من القيل والقال. والبيت المجاور لها هو منزل لمعلمة حياكة تجمع عددًا من الفتيات وتعلمهن الحياكة، وهي ثرثارة وكثيرة الكلام . هل يوجد شخص غبي ليجعل بيت محظيته في مكان كهذا؟

قال ذلك، وضحك بازدراء .

لمعت عينا الزوجة الضيقتان، كانت تسمع بكل اجتهاد، ثم قالت وقتها وكأنها تتدلل :

ـ ربما الأمر هو ما تقول، ولكن في أثناء ترددك مرات عديدة على بيت امرأة كهذه لا نعلم ماذا يمكن أن يحدث، وخاصة أنها تبدو امرأة تصبح حرة بالنقود .

ونسيت الزوجة في لمح البصر كلمة «حضرتك ».

ـ لا تتغابي يا امرأة. هل أنا من الرجال الذين يمدون أيديهم إلى امرأة أخرى وهو عنده امرأة مثلك. حتى الآن، مهما كانت المرأة، هل حدث ذلك ولو لمرة واحدة فقط؟ كُفي عن هذا! فلم نعد في عمر يجعلنا نتعارك بسبب غيرة بعضنا على بعض .

اعتقد «سويزو» أنه حقق نجاحًا باهرًا، في دفاعه عن نفسه وبسهولة غير متوقعة، فكان ينشد في داخل قلبه نشيد النصر .

ـ طبعًا، فمثلك من الرجال تحلو المرأة في قلوبهم، وهذا ما يقلقني .

ـ حقًّا! أنت لا تؤمنين إلا بأفكارك وما تعتقدين فقط .

ـ ماذا تعني؟

ـ مثلي لا تحبه من النساء إلا أنت. ما هذا؟ لقد تخطى الوقت الواحدة ليلًا. دعينا ننم. دعينا ننم .

الفصل الثالث عشر

حتى لو أطفأت حجج «سويزو» التي مزج فيها الحقائق بالأكاذيب نار الغيرة مؤقتًا لدى زوجته، فتأثيرها بالطبع هو تأثير وقتي، وما دام «الشيء» القابع في «موئنزاكا » لا يزال هناك بدون أي تغيير، فلن تنقطع النميمة أو الشكوى، فيجري ذلك على لسان الخادمة في قول: «اليوم فلان شاهده وهو يدخل من الباب الحديدي»، ويصل الكلام إلى أذن الزوجة. ولكن «سويزو» لا تعييه الحجج. إذا قيل له: «هل الأحاديث التجارية لا بد أن تتم في المساء؟»، يقول: «وهل يوجد شخص يتناقش في اقتراض الأموال في الصباح الباكر؟». وإذا قيل له: «لماذا لم يكن كذلك فيما سبق حتى الآن؟»، قال: «كان ذلك قبل أن أتوسع في أعمالي ».

كان «سويزو» حتى انتقاله للعيش في منطقة «حافة البركة» يعمل كل شيء وأي شيء بمفرده، ومع ذلك فبالإضافة إلى إنشائه مكانًا يشبه المكتب بجوار البيت، فقد أنشأ مكتبًا خارجيًّا في بيت بمنطقة «ريوسنجي ماتشي»، من أجل ألا يضطر الطلبة إلى الذهاب لمسافة بعيدة لاقتراض ما يحتاجون من أموال. من يحتَجْ أموالًا في حي «نيزو» يذهب إلى المحل الرئيسي. ومن يحتَجْ أموالًا في حي «يوشيهارا» يلجأ إلى المحل الفرعي. وفيما بعد حدث اتفاق متبادل بين محل «سويزو» ومحل اسمه «نيشينوميا» للهو والغناء، فأصبح من خلال الاتفاق يمكن لمن لا يملك مالًا أن يلهو في المحل، وتشكل ما يشبه كتيبة إمداد وتمويل لعملية اللهو واللعب .

لم يصطدم الزوجان إلى الدرجة التي يسيران فيها قدمًا لمرحلة جديدة من عدم التوافق، وعاشا على ذلك حوالي الشهر فقط. بمعنى أنه طوال تلك الفترة كان دفاع «سويزو» الواهي وغير المنطقي قد حقق نجاحًا. ولكن في أحد الأيام تولد انفجار للوضع من مكان غير متوقع .

قالت «أوتسونه» لزوجها إنها ستنتهز فرصة وجوده بالبيت لتخرج في وقت الصباح المعتدل لقضاء بعض المشتريات، فذهبت إلى «هيروكوجي» مصطحبة معها الخادمة. وفي طريق العودة وعندما كانتا على وشك المرور من شارع «ناكاميتشي»، جذبت الخادمة كُم رداء الزوجة بحركة خفية من الخلف. فقالت سيدتها معنفة لها :

ـ ماذا حدث؟

ثم نظرت تجاه وجه الخادمة التي أشارت في صمت إلى سيدة تقف أمام محل على الجهة اليسرى منهما. نظرت «أوتسونه» على غير رغبة منها إلى تلك الناحية، وبلا وعي أوقفت قدميها عن السير. في ذات اللحظة التفت المرأة لهما. وتبادلت «أوتسونه» النظرات معها .

في البداية ظنت «أوتسونه» أنها فتاة «جيشا»، ولكن إذا كانت فتاة «جيشا» ففي حي «سُكياماتشي» توجد فتيات أجمل منها يملأن المكان هنا وهناك. هكذا قدرت «أوتسونه» في الوقت القصير الذي أتيح لها. ولكنها انتبهت في اللحظة التالية إلى أن تلك المرأة لا تملك شيئًا مما تملكه عادة فتيات «الجيشا». لا تستطيع «أوتسونه» أن تصف ذلك

الشيء. ولكن إذا حاولت الشرح فربما يكون هو المبالغة في السلوك والحركات. ترتدي «الجيشا» زي «الكيمونو» في أجمل هيئة. تصنُّع هذه الهيئة الجميلة، المبالغة إلى حد ما، تجعلها تفقد بالضرورة صفات التواضع والبساطة. إنها تلك المبالغة التي افتقدتها «أوتسونه» في تلك المرأة .

وفي الوقت ذاته، شعرت المرأة التي أمام المحل من دون وعي أن أحد المارة بجانبها قد توقف عن السير، فالتفتت للخلف ونظرت ولكنها لم تجد في ذلك الذي توقف أي شيء يجعلها تحذر منه أو تنتبه له، فأدارت مظلة الوطواط قليلاً ناحية الداخل وقربتها من ركبتيها وحملتها ومالت برقبتها المختبئة داخل فتحة كيس النقود الصغير الذي أخرجته من حزام «الكيمونو»، لتبحث عن قطعة عملة فضية صغيرة .

كان المحل هو محل «تاشيجارايا» على الجهة الجنوبية من شارع «ناكاميتشي». وهو اسم نادر لمحل، وقد قال أحدهم :

ـ لو قرأنا كلمة «تاشيجارايا» بالعكس ستصبح «ياراجاشيتا» (أي دعه يعمل)، هذا المحل ذو الاسم العجيب يبيع منظف أسنان داخل كيس ورقي أحمر، مطبوع عليه حروف ذهبية اللون. في ذلك العصر الذي لم يكن يوجد فيه بعد منظف الأسنان المعجون المستورد من الخارج، كانت البضائع، التي لا تعتبر من الدرجة الأولى، تتمثل في اثنين: مسحوق «كاوسان» الذي تفوح منه رائحة زهرة «الفاوانيا» ويباع في محلات «كيشيدا»، ومنظف أسنان «تاشيجارايا» هذا .

لم تكن المرأة الواقفة أمام المحل شخصًا آخر، بل هي «أوتاما» التي عرجت على المحل لشراء منظف الأسنان، في طريق عودتها من زيارة بيت والدها في الصباح الباكر .

بعد أن سارت «أوتسونه» أربع أو خمس خطوات همست لها الخادمة :

ـ سيدتي. إنها هي تلك المرأة. امرأة «موئنزاكا ».

لم تحدث تلك الكلمات أي أثر لدى «أوتسونه» التي أومأت صامتة، ما جعل الخادمة تحس بالغرابة. كانت «أوتسونه» في الوقت نفسه الذي فكرت فيه أن تلك المرأة ليست فتاة «جيشا» قد عرفت بشكل غريزي أنها امرأة «موئنزاكا». بالإضافة إلى ذلك، ما ساعدها في ذلك الحكم هو أن الخادمة لن تجذب كُم ردائها لتريها إياها لمجرد أنها امرأة جميلة فقط، ولكن هناك أمرًا آخر غير متوقع أثر كثيراً في تلك المسألة. إنها مظلة الوطواط التي كانت «أوتاما» تضعها بجوار ركبتها .

كان ذلك الأمر قد مر عليه حوالي شهر بالفعل. في أحد الأيام عاد زوجها من «يوكوهاما»، وقد حمل معه مظلة شمس وطواط اشتراها لها هدية. كانت مظلة طويلة بشكل مريع، والجزء المظلل صغير بدرجة لا تناسب الطول. ربما يحسن أن تمسك بها امرأة غربية طويلة القامة وتجعلها كاللعبة في يديها، ولكن عندما أمسكت بها «أوتسونه» القصيرة السمينة ـ لو قلنا بشيء من المبالغة ـ فقد كانت تبدو وكأنها تمسك عمود نشر الغسيل الطويل وقد شبكت في طرفه قماط رضيع. وبسبب

ذلك وضعتها في الخزانة من دون استعمالها. كانت تلك المظلة عليها رسمة مربعات فوق أرضية بيضاء، مصبوغة بلون أزرق غامق. وقد عرفت «أوتسونه» بوضوح أن مظلة الوطواط التي تحملها امرأة محل «تاشيجارايا» تشبه تمامًا مظلتها .

في الوقت الذي انعطفتا فيه ناحية البركة عند ركن محل بيع «الساكي»، قالت الخادمة وكأنها تحاول إصلاح مزاج سيدتها :

ـ سيدتي، ألا ترين أنها ليست بهذا الجمال الفائق؟ فوجهها مسطح، وقامتها طويلة بشكل مقزز .

قالت الزوجة :

ـ لا يجب عليكِ التلفظ بهذا القول !

وبعدها ظلت تجدُّ في السير ولا تلتفت لها. والخادمة تتبعها بوجه غير راضٍ بعد أن خاب مسعاها .

بدا أن قلب «أوتسونه» يفور من الغليان، ولم تستطع التفكير في أي شيء بوضوح. ولم يكن لديها أي فكرة عن كيفية مواجهة زوجها أو ماذا ستقول له، ولكنها مع ذلك تشعر أنها يجب أن تصطدم بزوجها سريعًا وتواجهه. ثم فكرت كما يلي: «لكم كانت سعادتي عندما اشترى لي مظلة الوطواط تلك. فحتى ذلك الوقت لم يسبق له أن اشترى لي أي شيء من دون طلب مني. لقد أحسست بالدهشة متسائلة: لماذا في هذه

المرة بالذات اشترى لي هدية من مكان سفره؟ ولكم اندهشت أن يصبح زوجي لطيفًا معي هكذا فجأة. لو فكرت مجدَّدًا الآن، فعلى الأغلب تلك المرأة هي التي طلبت منه مظلة، وأثناء الشراء فكر في شراء واحدة لي معها. هذا هو ما حدث ولا ريب. ولكم كنت ممتنة له من دون أن أدري ذلك! وشعرت بالعرفان لشرائه تلك المظلة التي لم ولن أستخدمها. ربما لا يقتصر الأمر على المظلة فقط. ربما تكون ملابس تلك المرأة من «الكيمونو» وما تستخدمه لشعرها قد اشتراه لها زوجي. فما أرتديه أنا يختلف تمامًا عما ترتديه، بالضبط كما تختلف تلك المظلة المغلفة بقماش الستان التي أحملها أنا، عن تلك المظلة المستوردة التي على شكل الوطواط. وليس هذا شأني أنا فقط، ولكن حتى لو رغبت في إلباس الأطفال زي «كيمونو»، فهو لا يستجيب ويطلب حياكة شيء لهما ويقول إن الولد لو لديه قطعة واحدة من الزي فهي تكفي. أما البنت فيقول إن حياكة زي «كيمونو» لها وهي صغيرة فيه خسارة كبيرة لأنها حتمًا ستكبر ولا ترتديه . هل يوجد شخص يملك عشرات الآلاف من الأموال ورغم ذلك تظل زوجته وأولاده في مثل مظهرنا هذا؟ عندما أفكر في الأمر الآن، فعلى الأرجح وجود تلك المرأة سبب عدم اهتمام «سويزو» بنا. ولا يمكن التأكد كذلك من حقيقة قوله إنها امرأة السيد «يوشيدا». وربما كانت تحت رعاية زوجي منذ وجودها في حي «ناناماجاري». بل هو كذلك بالتأكيد. فبعد أن زادت في يده الأموال، وأصبح يسرف ببذخ في ملابسه ومقتنياته، كان يقول إن ذلك من أجل علاقاته مع شركاء العمل، ولكنه كان بسبب تلك المرأة. فلم يحاول أن يأخذني معه إلى أي مكان، لا ريب أنه يصطحب معه تلك المرأة. نعم، يا للحسرة ».

نادتها الخادمة فجأة أثناء استغراقها في تلك الأفكار :

ـ سيدتي! إلى أين تذهبين؟

تفاجأت «أوتسونه» ووقفت في مكانها. فمع الاجتهاد في السير وهي تنظر للأرض كانت على وشك تخطي الركن الذي يوجد فيه بيتها .

وضحكت الخادمة بلا استحياء .

الفصل الرابع عشر

كان «سويزو» يقرأ الجريدة وهو يدخن التبغ، وقت خروج «أوتسونه» للتبضع بعد أن رتبت مائدة طعام الإفطار، ولكن عندما عادت، كان قد رحل عن البيت بالفعل. لا تدري لو كان ما زال موجودًا بالبيت ماذا كانت ستقول له، وأصيبت «أوتسونه» بخيبة أمل لغيابه لأنها عادت وهي ترغب في الاشتباك والتصادم معه بأي حال وقول أي شيء له. من الضروري الآن إعداد وجبة الغداء. ويجب كذلك حياكة «الكيمونو» المبطن الذي سيكون ضروريًّا للطفلين بعد فترة قصيرة، وكانت قد بدأت فيهما وتركتهما من دون إكمال. خفت تدريجيًّا حدة رغبة «أوتسونه» في الاشتباك مع زوجها أثناء تحركها بشكل آلي في أعمالها المعتادة. فيما مضى وحتى الآن حدث عدة مرات أن اصطدمت مع زوجها بفورة عارمة وفي نيتها الاشتباك ونطح الجدران الصخرية برأسها. ولكنها كانت تندهش دائمًا أن الجدار الصخري الذي من المفترض أن يقاوم رأسها يتحول إلى ستارة من القماش تتفادى ضربات الأذرع. ثم بعد ذلك وعندما تسمع زوجها يتحدث بلسان لين سلس بكلام تبدو به سيمات المنطق، لا تستسلم دائمًا للحجة والمنطق ولكنها تفقد قوة اندفاعها بسبب شيء ما. واليوم أصبحت لا تعتقد أنها ستستطيع عمل الهجمة الأولى جيدًا. تتناول «أوتسونه» وجبة الغداء مع طفليها. وتصبح القاضي بينهما في خصومتهما وتحكم بينهما. وتخيط بطانة «الكيمونو». ثم تعد طعام العشاء. وتجعل الطفلين يستخدمان الطست للاستحمام، ثم تستخدمه هي أيضًا. ثم تتناول طعام العشاء وهي تشعل بخور طرد البعوض. ثم عاد الطفلان اللذان خرجا بعد تناول

الطعام للعب في الخارج، بعد أن تعبا من اللعب. ثم جاءت الخادمة من المطبخ، وأخذت تفعل ما اعتادت عليه من وضع الفراش في مكانه المحدد، وتعليق الناموسية، وأخذ الطفلين إلى المرحاض ثم جعلهما ينامان. تضع «أوتسونه» الشبكة الواقية من الذباب على وجبة عشاء زوجها، وتضع غلاية الماء المعدنية على مجمرة الحطب، وتأخذهما إلى الغرفة المجاورة. هي تضعهما بهذا الشكل دائمًا عندما لا يعود زوجها في وقت تناول وجبة العشاء .

فعلت «أوتسونه» كل ذلك مثل آلة بلا عقل. ثم أمسكت مروحة يدوية ودخلت تحت الناموسية. وأخذت تتخيل زوجها الآن وهو يذهب إلى منزل تلك المرأة كما لو أن ذلك يحدث بوضوح أمام عينيها. يبدو أنها تشعر بعدم القدرة على الجلوس هادئة الجسد. وأثناء تفكيرها: «ما العمل؟ ما العمل؟» جاءتها رغبة في أن تتسكع ماشية إلى منزل «موئنزاكا » لاستطلاع الأمر. عندما ذهبت مرة إلى محل «فوجيمورا» لشراء كعكة الأرز الريفية المفضلة لطفليها من بين الحلوى، معتقدة أن المنزل المجاور لمنزل معلمة الحياكة هو ذلك المنزل، فنظرت إليه وهي تمر من أمامه، ولذا فهي تعرف ذلك المنزل ببابه الحديدي والأسياخ. ترغب فجأة في الذهاب حتى ذلك المنزل ورؤيته. هل تشير أضواء النار للخارج؟ هل تُسمع بالداخل أصوات ولو ضئيلة؟ كانت ترغب في رؤية ولو ذلك فقط ثم تعود . لا، لا، لا يمكنها ذلك. فمن أجل ذلك لا بد لها من المرور في الطرقة بجوار غرفة الخادمة وإلا لن تستطيع الخروج. وفي الآونة الأخيرة كان باب تلك الطرقة منزوعًا. ومن المفترض أن الخادمة «ماتسو» ما زالت مستيقظة تقوم بأعمال الحياكة.

وعندما تسألها إلى أين تذهب في هذا الوقت، فلن تجد جوابًا. فإذا قالت: «ذاهبة لشراء شيء ما » ، فمن المؤكد أن «ماتسو» ستقول: «سأذهب أنا». ومع التفكير مهما كانت رغبتها في الذهاب قوية، فهي غير قادرة على الذهاب خفية. آه، وما العمل يا ترى؟ عندما عادت للمنزل في هذا الصباح كانت ترغب في لقاء ذلك الرجل بأسرع وقت ممكن: «لو كنت قابلته وقتها، ماذا كنت سأقول له يا ترى؟ لو كنت قابلته فأنا أعرف نفسي، بالتأكيد كنت سأقول له أشياء لا معنى ولا نهاية لها. وعندها كان سيقول هو كلمات مناسبة، ومن المؤكد أنه كان سيخدعني مرة ثانية . فلأنه رجل بهذا القدر من اللباقة وحلاوة اللسان فمهما تعاركنا فلن أطوله. أألتزم الصمت التام؟ ولكن ماذا سيجدي الصمت؟ فحتمًا لو كانت امرأة مثل تلك المرأة معه، من المؤكد أنه لن يأبه لامرأة مثلي مهما حدث لي. ما العمل؟ ما العمل؟ ».

مع إعادتها لهذه الأفكار مرارًا وتكرارًا، تعود القهقرى لنقطة انطلاق أفكارها البدائية أكثر من مرة. وأثناء ذلك يبدأ رأسها في الشرود، وتصبح لا تفهم شيئًا. ولكن على أي حال الاصطدام بعنف مع الزوج لا فائدة منه، لذا قررت فقط الإقلاع عنه .

هنا دخل «سويزو» عائدًا. تعمدت «أوتسونه» أن تعبث في صمت في رسومات المروحة التي تمسكها في يدها .

ـ ما هذا؟ مرة أخرى أحوالك غريبة. ماذا حدث؟

حتى لو لم تستقبله الزوجة بكلمة التحية المعتادة: «مرحبًا بعودتك»، فهو لا يبدي تجاهها غضبًا. والسبب هو أن مزاجه جيد .

التزمت «أوتسونه» الصمت. وحاولت أن تتلافى الصدام، ولكن عند رؤية زوجها يعود في تلك الحالة، ارتفع شعورها بالحسرة، ولم تستطع أن تظل هكذا من دون مقاومة .

ـ يبدو أنك تفكرين مرة أخرى في أشياء سخيفة. توقفي! توقفي !

وضع يده على كتف الزوجة، ثم هزها مرتين أو ثلاثًا، وبعدها جلس في فراشه .

ـ أفكر فيما يجب عليَّ فعله. فحتى لو قلت سأترك البيت، لا يوجد بيت آخر أعود إليه، كما أنه يوجد بيننا طفلان .

ـ ما هذا القول؟ تفكرين فيما يجب عليك فعله؟ أليس من الأفضل عدم فعل شيء على الإطلاق؟ فكل الأمور على ما يرام ونحن نعيش في سلام ووئام .

ـ تستطيع أنت القول بحرية إن الأمور على ما يرام. لأنك لا تبالِي بما يحدث لي .

ـ غريب هذا القول. يحدث لك شيء؟ لن يصل الأمر إلى حدوث مكروه لك. بقاؤك كما أنت الآن هو أمر جيد .

ـ أجل، أجل، استمر في السخرية مني. لأن وجودي من عدمه لا يمثل لك اختلافًا، فمن المؤكد أنك لا تعتبرني ندًّا لك. هو كذلك. ليس وجودي وعدمه سيان، بل من المؤكد أن الأفضل لك عدم وجودي. أليس كذلك؟

ـ ما هذه الطريقة الملتوية في القول يا امرأة؟ أتقولين عدم وجودك أفضل؟ هذا خطأ كبير. عدم وجودك يتعبني ويزعجني. حتى لو قمت برعاية طفلينا فقط، فهذا دور كبير .

ـ الطفلان سترعاهما المرأة الجميلة التي ستحل محلي. فسيصبحان ابنيها بالتبني .

ـ لا أفهم! من المفترض ألا تكون هناك حاجة للتبني ووالدا الطفلين كلاهما بجانبهما .

ـ نعم هو كذلك. من المؤكد أن الأمر كذلك. حقًّا شيء يجلب السعادة. حسنًا، إلى متى تعتزم الاستمرار في فعل ما تفعله الآن؟

ـ وما أدراني؟

ـ حقًّا. تجعل المرأة الجميلة والمرأة ذات الوجه المنتفخ تستخدمان مظلة الوطواط نفسها؟

ـ أوه، ما هذا؟ أراك تقولين أقوالًا تشبه قول العروض المسرحية الهزلية !

ـ أجل. فعلى أي حال لا تستطيع امرأة مثلي أن تذهب وتشاهد مسرح «النوه» الجاد .

ـ ما أرغب فيه هو أن تجعلي الكلام أكثر جدية ولو أقل مما هو عليه مسرح «النوه». ماذا تعنين بمظلة الوطواط؟

ـ أنت تعرف .

ـ من الذي يعرف؟ لا أعرف أي شيء بالمرة !

ـ إذا كان الأمر كذلك، سأقول لك. ألم تشترِ لي مظلة الوطواط عند عودتك من «يوكوهاما» في أحد الأيام؟

ـ وما علاقة ذلك؟

ـ لم تشترها لي وحدي فقط، أليس كذلك؟

ـ لم أشترها لك وحدك؟ فلمن اشتريتها إذن؟

ـ لا. ليس الأمر كذلك وأنت تعرف. لقد اشتريتها من أجل امرأة «موئنزاكا»، وبجملة الأمر اشتريت لي معها .

بعد أن تحدثت «أوتسونه» لفترة عن مظلة الوطواط، شعرت في الوقت نفسه بارتفاع حسرتها عندما تحدثت بهذا التفصيل وهذا الوضوح.

أصابت الهدف كما لو كانت تريد القول: «لقد كشفت الأمر!»، فبدا على وجه «سويزو» أنه أُخذ على حين غرة، واحتار في كيفية الرد .

ـ كلام أبله لا أصل له. ما هذا؟ هل تريدين القول إن امرأة «يوشيدا» تمتلك مظلة شبيهة بالمظلة التي اشتريتها لك؟

برزت حدة صوتها أكثر من ذي قبل :

ـ بالتأكيد هي تمتلك واحدة شبيهة لأنك أنت الذي اشتريتها لها .

ـ ما هذا القول؟ هذا شيء يثير الحنق، توقفي عند حدك. نعم وقتها قيل لي إنها جاءت كعينة للبضاعة، ولكن الآن لا شك أنها مرصوصة بأعداد كبيرة في أسواق «جينزا» وغيرها من الأسواق. في هذا الأمر أنا بريء تمامًا كما يقال في المسرحيات الدرامية. ثم ماذا؟ أتقولين لي أنك قابلتِ امرأة «يوشيدا» تلك؟ أين؟ وكيف عرفتِها؟

قالت بمنتهى الكراهية :

ـ نعم عرفتها. فلا يوجد في هذه الناحية من لا يعرفها، لأنها جميلة جدًّا .

حتى ذلك الحين، كانت إذا تظاهر «سويزو» بالجهل إلى هذه الدرجة، فهي تصدق ذلك فجأة، ولكن هذه المرة، لأن حدسها كان على درجة قوية من الشدة والعنف، ولأنها كانت تشعر أنها قد رأت بأم عينيها ذلك

الأمر أمامها، فلم تستطع مطلقًا أن تصدق كلام «سويزو» وتقول: «نعم من الممكن أن يكون الأمر كذلك ».

وأثناء تفكير «سويزو» في عديد من الأمور: «لماذا قابلتها؟ هل كلمتها أم لا؟»، فكر أن السؤال عن الأمر واستطلاع كل صغيرةَ وكبيرة عنه فَي هذه اللحظة، لن يكون في صالحه، فتعمد ألا يلاحقها بالأسئلة .

ـ أتقولين جميلة؟ أمثل تلك المرأة مسطحة الوجه بشكل عجيب يقال عنها جميلة؟

ظلت «أوتسونه» صامتة. ولكن كلمات زوجها الذي أشار إلى عيب وجه المرأة التي تحقد عليها، أذاب قليلاً من حدة مشاعرها .

في تلك الليلة حدث تصالح بين الزوجين بعد أن ثارا ضد بعضهما البعض وتبادلا الحجج والأعذار. ولكن تبقت في قلب «أوتسونه» شوكة غارزة لم تتمكن من انتزاعها منه بالكامل .

الفصل الخامس عشر

أصبح جو بيت «سويزو» يغوص ويغرق تدريجيًّا ويتجه ناحية الكآبة. أحيانًا تكون «أوتسونه» شاردة تحملق في الهواء، وأحيانًا لا تلمس أي شيء. وفي ذلك الوقت لا تستطيع رعاية الطفلين ولا فعل أي شيء آخر، وإذا طلب منها الطفلان شيئًا على الفور توبخهما بعنف. وبعد ذلك تنتبه لما فعلت، فتعتذر لهما ثم تبكي وحيدة. وحتى لو سألتها الخادمة ماذا تطبخ لوجبة الطعام، لا ترد عليها أحيانًا، وأحيانًا أخرى تقول لها :

ـ افعلي ما يحلو لكِ .

أما عن «سويزو» فحتى لو قيل عن طفليه في المدرسة «ابنا المرابي»، وتفادَى زملاؤهما الاختلاط بهما، فبسبب حبه للنظافة يدفع زوجته لرعايتهما ليبرزا نظيفين نقيين، ولكن الآن أصبح رأساهما مليئين بالقاذورات وأصبحا في بعض الأحيان يذهبان للعب خارج البيت في ملابس رثة مهلهلة. حتى إن الخادمة الصغيرة مع أنها تعيب عليها بكلمات مثل: «يا سيدتي هذا الوضع لا يصح!»، إلا أنها مثل الحصان الذي يعتليه فارس أخرق فيكسل ويبدأ في أكل حشائش الطريق، تهمل كل شيء، فتترك الأسماك حتى تفسد والخضراوات حتى تجف وتذبل في خزانة المطبخ .

و«سويزو»، الذي يحب أن يكون بيته دائمًا مرتبًا ومنظمًا، لم يكن

يحتمل رؤية ذلك الإهمال وعدم النظام. ولكنه كان يفهم سبب حدوث ذلك، ولذا فهو يعتبر نفسه المخطئ، ولم يستطع أن يقول أية شكوى. علاوة على أنه حتى وهو يقول الشكوى فهو يقولها في شكل مزاح خفيف، وهو بارع في جعل الطرف الآخر يراجع نفسه، ولكن بدا أن أسلوبه الساخر هذا كان على العكس يتسبب في تعكير مزاج زوجته .

بدأ «سويزو» في مراقبة زوجته في صمت. ثم اكتشف أمرًا غير متوقع. وهو أن تصرفات «أوتسونه» الغريبة تزداد بصفة خاصة أثناء وجوده في البيت، وعلى العكس عندما يكون خارجه كثيراً ما تتحرك وتعمل كأنها قد انتبهت وأفاقت. اندهش «سويزو» في البداية عندما سمع حديث طفليه وحديث الخادمة وعرف هذه العلاقة، ولكنه بدأ يعيد التفكير في أمور عديدة بعقله الذكي: «هذا معناه أن ذلك المرض الذي أصاب زوجتي مؤخرًا يظهر لها عندما ترى وجهي. أنا الذي أفعل أشياء تثير حنقها وغضبها. مع أنني أحاول جاهدًا أن أجعلها تعتقد بأي شكل أن زوجها هادئ، وأحاول جعلها لا تشعر بالتجاهل، ولكن وجودي بالبيت على العكس يجعل مزاجها أكثر سوءًا، بالضبط وكأنك تعطيها دواءً يجعل حالة المرض تتفاقم. لا يوجد ما هو أكثر كآبة من ذلك». ولذا فكر «سويزو» في محاولة فعل العكس من ذلك .

وصار «سويزو» يخرج من البيت أبكر من المعتاد ويعود إليه متأخرًا عن المعتاد. ولكن نتيجة ذلك كانت سيئة للغاية. عندما كان يخرج مبكرًا كانت زوجته تندهش فقط ولا تتكلم. وعندما يعود متأخرًا، وخلافًا لما كانت عليه في البداية من وسيلتها السلبية دائمًا بإظهار وجه جهم، فقد

صارت وكأن قدرتها على الصبر قد وصلت لأقصاها، فانفجرت ولم تعد تتحمل المزيد، وتبدأ ملاحقته بقولها :

ـ أين كنت حتى هذا الوقت المتأخر؟

ثم تنفجر بالبكاء .

ومنذ تلك المرة وكلما حاول الزوج الخروج مبكرًا تقول له :

ـ أنت، إلى أين أنت ذاهب الآن؟

وتحاول منعه بالقوة. وإذا قال لها عن المكان الذي سيذهب إليه تُكذبه. وإذا حاول الخروج عنوة، تقول له :

ـ هناك ما أريد إخبارك به بشدة، لذا انتظر قليلاً .

وتقبض على ملابسه ولا تتركه، أو تقف أمام الباب لتسده، بدون أن تبالي برؤية الخادمة لما تفعله، فتحاول إعاقته عن الخروج. ورغم أن أسلوب «سويزو» هو إنهاء أي أمر لا يروق له بما يشبه المزاح بدون أن يتوتر أو يضطرب، فإنه حدث في مرات عديدة أن قام بدفع زوجته التي تتشبث به قابضة بيدها على ملابسه بعيدًا مما يجعلها تسقط طريحة على الأرض. وتشاهد الخادمة ذلك الموقف المعيب، وفي هذه الحالة، يستجيب لها «سويزو» بتعقل ويمكث معها في البيت ثم يقول لها :

ـ لنسمع ما تريدين قوله .

فتبدأ في إبداء مشكلات صعبة ومعقدة لا يمكن حلها بين عشية وضحاها، مثل قولها: «ما الذي تنوي أن تفعله بي؟»، أو: «بفعلك هذا ماذا سيكون عليَّ أن أفعل في المستقبل؟»، إلخ .

لم تأتِ أية طريقة لعلاج المرض من خلال معالجة العرض التي جرب «سويزَو» تطبيقها لعلاج زوجته، وهي «الخروج مبكرًا والعودة متأخرًا»، بأي نتيجة على الإطلاق .

جرب «سويزو» التفكير مرة أخرى: «الزوجة يكون مزاجها أسوأ عندما أكون موجودًا بالبيت. وعندما أحاول ألا أكون موجودًا تمنعني بالقوة وتحاول إبقائي فيه». لو نظرنا إلى ذلك نجد أنها هي التي تطلب بقاءه في البيت وهي التي تعكر مزاجها بنفسها. إزاء ذلك تذكر «سويزو» أمرًا ما : «عندما كانت كلية الطب ما زالت في منطقة «إيزومي باشي»، كان يوجد طالب يدعى «إيكاي» يقترض أموالًا. كانت هيئته تظهر أنه لا يهتم كثيراً بمظهره، ينتعل قبقابًا في قدمه العارية، ويسير رافعًا كتفه اليسرى بمقدار إصبعين أو ثلاثة أصابع. ومع أن هذا الطالب ظل هاربًا مني ويرفض دفع الديون أو تجديد صكوك الأمانة، إلا أنني في أحد الأيام قابلته صدفة عند ركن في حارة «أوئيشي يوكوتشو». عندما سألته: «إلى أين تذهب؟»، قال: «سأذهب إلى محل معلم رياضات الدفاع عن النفس والجودو في ذلك المكان القريب، سأدفع المعلوم الذي بيننا في القريب العاجل». ثم تفاداني سائرًا بسرعة في طريقه. وتظاهرت بالسير

في الطريق العكسي، ثم بحرص عدت إلى ما كنت عليه، ووقفت في الركن أراقبه. دخل «إيكاي» مطعم «إيومون». وبعد أن عرفت ذلك، تركته وأنهيت مشواري في «هيروكوجي»، ثم بعد فترة اقتحمت عليه مطعم «إيومون». أُخذ «إيكاي» على حين غرة، ولكن اللعين وبسبب رباطة جأشه دعا اثنتين من فتيات «الجيشا» وقال لي: «لا تتحدث بفظاظة، ودعنا اليوم نشرب كأسًا معًا». وهو يشدني لأجلس في الغرفة التي تكثر فيها الجلبة، وجعلني أشرب الخمر معه. وقتها شاهدت لأول مرة في حياتي فتيات «الجيشا» في مجلس الطعام، وكانت بينهن فتاة في غاية الأناقة والجمال، على ما أذكر كان اسمها «أوشون». كانت جالسة أمام «إيكاي» وقد سكرت تمامًا، وكان شيء ما يكدرها، فبدأت في نفث سموم كلامها. وقتها كنت أستمع فقط، ولكني لا أنسى تلك الكلمات حتى الآن. قالت على ما أتذكر: «يا سيد «إيكاي»، حتى لو بدوت في الظاهر صعب المراس إلا أنك في الأصل رجل مدلل تمامًا. وسوف أقولها لك صراحة لتضعها في حسبانك: المرأة أحيانًا إن لم تلتقِ رجلًا يصفعها على وجهها بقوة، فلن تغرم به. تذكر ذلك جيدًا ».

ربما لا يقتصر ذلك الأمر على فتيات «الجيشا». ربما تكون المرأة في إجمالها على هذه الشاكلة. فـ«أوتسونه» اللعينة تحاول أن تجعلني بجوارها، دائمًا تعارضني وتقاومني. ويبدو لي ما الذي تريدني أن أفعله. تريدني أن أصفعها. نعم هو كذلك. تريد أن تُضرب. لا شك في ذلك. بسبب أنني جعلت «أوتسونه» طوال الفترة السابقة تعمل وتتحرك مثل بقرة أو حصان، من دون أن أطعمها طعامًا جيدًا، تحولت إلى بهيمة، لا تستطيع إظهار سمات الأنوثة فيها. وبعد أن انتقلنا إلى هذا البيت،

واستخدمنا خدمًا ينادونها «يا سيدتي»، أصبحت تعيش حياة أكثر إنسانية عما كانت عليه من قبل بكثير، واقتربت قليلاً من سيدات المجتمع الراقي. ثم أصبحت كما تقول «أوشون» تريد مني أن أصفعها وأضربها .

وعند ذلك ماذا عني؟ حتى أصبحت غنيًّا، كنت لا أهتم بما يقوله الناس. كنت أقول لشاب غر بلا أي خبرة «يا سيدي » وأنحني له. مررت على هذه الدنيا بشعور عدم الاهتمام حتى لو تم ركلي أو وطئي، وأقول لا بأس ما دمت لم أخسر شيئًا. قضيت الأيام يومًا تلو الآخر أنحني وأركع مثل عنكبوت مسطح في أي مكان أذهب إليه وأمام أي شخص، بعدما تعاملت مع ناس المجتمع وجدت أن المتواضع أمام من هو أعلى منه يتعامل بتعال مع من هو أسفل منه ويستقوي على الضعفاء. عندما يسكر يصفعٍ المرأة والأطفال. ولكن لا يوجد لي من هو أعلى مني ولا من هو أسفل مني. أنا أركع وأنحني أمام من يجعلني أكسب أموالاً. أما غير ذلك فالجميع وجودهم مثل عدمه. لا أبالي بهم مطلقًا. أتجاهلهم تمامًا، ولا أكلف نفسي حتى عناء صفعهم أو ضربهم. بدلاً من عمل هذا الأمر عديم الفائدة أستغل الوقت في حساب فوائد الربا. حتى زوجتي كنت أتعامل معها بالطريقة نفسها .

إن «أوتسونه» أصبحت تريد منى أن أصفعها. هي مسكينة، ولكن هذا هو الوضع الحالي البائس. أنا أستطيع أن أعصر شحم المدين ولو كان ليمون بنزهير حتى يخرج منه عصير مر. ولكنني لا أستطيع أن أصفع أحدًا». هكذا كان «سويزو» يفكر .

الفصل السادس عشر

تزايد بشدة عدد المارة في منحدر «موئنزاكا». فلقد أصبحنا في شهر سبتمبر وبدأ الفصل الدراسي للجامعة، ولذا فالطلاب الذين كانوا قد ذهبوا إلى قراهم في فترة الصيف رجعوا إلى مساكن الطلبة المحيطة بمنطقة «هونجو» مقر الجامعة .

ما زالت هناك أيام حارة أثناء النهار حتى لو كانت معتدلة الحرارة في الصباح والمساء. خيزران الستائر الداخلية للشرفة، الذي جُدِّد عندما انتقلت «أوتاما» لهذا البيت ـ ولم يفقد لونه الزاهي بعد ـ مغلق تمامًا من دون أي فتحات سواء في الأعلى أو في الأسفل. تجلس «أوتاما»، التي تعاني من الإحساس بالملل والفراغ، داخل تلك الشرفة مسندة ظهرها أسفل العمود المثبت به عدد من المراوح اليدوية التي بها رسومات للفنان «كيوساي» والفنان «زشين»، تنظر وهي شاردة البال في الرائح والغادي. بعد أن تتخطى الساعة الثالثة، تمر جماعات الطلاب منقسمين إلى ثلاثة أو أربعة أفراد. وفي كل مرة ترتفع همهمات بنات مدرسة الحياكة المجاورة التي تشبه زقزقة عصافير صغيرة. يحث ذلك «أوتاما» على الانتباه من دون تعمُّد، فتنظر إلى الشخص المار .

كان أغلبية طلاب ذلك الوقت، ممن سيطلق عليهم فيما بعد كلمة المتعالين، ومن النادر ما يمر طالب متأنق، وإذا مر فهو من هؤلاء الذين هم على وشك التخرج. وجوههم بيضاء وأنوفهم سامقة وأعينهم جميلة، هم على أي حال يبدون طائشين سفهاء لا يميل إليهم أحد . أما

غير ذلك فربما منهم من يكون متفوقًا في دراسته، ولكنه يبدو في أعين البنات فظًّا غليظ القلب، فهن يكرهن ذلك النوع. ومع ذلك تنظر «أوتاما» إلى الطلبة المارين خارج الشرفة بشكل غير يومي. وفي أحد الأيام اندهشت فجأة لإحساسها بأن شيئًا ما بدأ ينبت داخل قلبها. تخلَّق جنين داخل اللاوعي، واندهشت من كتلة من التخيلات التي بدأت تظهر فجأة للمرة الأولى معلنة عن نفسها بعد أن تكونت في شكل ما .

لم يكن لدى «أوتاما» أي هدف آخر غير إسعاد والدها، ولذا أقنعت والدها العنيد وجعلته يوافق أن تكون محظية. ثم كانت تطلب نوعًا من الأمان من خلال فعل الإيثار هذا بعد أن رأت نفسها تسقط إلى أقصى درجات السقوط. ولكنها في الوقت الذي عرفت فيه أن السيد الذي اتخذها محظية كان من بين كل الرجال مرابيًا، احتارت حيرة شديدة بسبب ضخامة الأمر. وهنا لم تكن تستطيع بمفردها إزالة شعور الضيق من قلبها، ففكرت في مفاتحة والدها في الأمر وتقاسُم تلك المعاناة والكرب معه. كانت تفكر بهذه الطريقة ولكن عندما توجهت لزيارته في بيته الجديد في «حافة البركة»، ورأت حياته الهادئة المسالمة، لم تستطع أن تصب قطرة واحدة من السم في كأس السعادة الذي يمسك به العجوز في يده. وقررت بكل عزمها أنها مهما كانت درجة مشاعرها المؤلمة ستحتفظ بها في قلبها بمفردها. وفي الوقت نفسه الذي قررت فيه «أوتاما» ذلك، وهي التي كانت حتى ذلك الوقت لا تعرف إلا الاعتماد على الآخرين، أصبحت تملك لأول مرة قلبًا مستقلًّا يعتمد على نفسه .

صارت «أوتاما» منذ ذلك الوقت تراقب نفسها خلسة في كل قول تقوله وكل فعل تفعله، وصارت عندما يأتي «سويزو» لا تخالطه بمشاعر تلقائية ليس بها أية عقد كما كانت تفعل حتى ذلك الحين، بل أصبحت تُضيِّفه بشكل متعمد وواعٍ. وأثناء ذلك كانت مشاعرها الحقيقية تفارق جسدها وتتقهقر إلى جانبها تنظر إليهما. ثم كانت تلك المشاعر الأصلية تضحك ساخرة من «سويزو» ومن نفسها التي هي ملك يمين «سويزو». ولقد أصاب «أوتاما» الرعب عندما انتبهت لذلك للمرة الأولى. ولكنها اعتادت مع مرور الوقت وبدأت تشعر أن قلبها لا يجب إلا أن يكون هكذا .

وبعد ذلك، عندما صار قلب «أوتاما» جافيًا تجاه «سويزو»، صارت ضيافتها له أكثر حنانًا. ثم صارت لا تشعر بالامتنان لـ«سويزو» لأنه يعيلها، بل أحست أن الأمر لا يتطلب أي شعور بالأسى تجاهه لأنه لا يتلقى منها أي شعور بالجميل تجاه ما يفعله من أجلها. وفي الوقت ذاته، ومع أنها ليس لديها أي فن أو مهارة ولم تتلقَّ أي تدريب أو تهذيب إلا أنها تشعر بالحسرة على أنها في النهاية صارت ملكًا لـ«سويزو». لدرجة أنها تنظر إلى الطلاب المارين أمام البيت، وتفكر لو أن بينهم شخصًا يُعتمد عليه، ينقذها من وضعها الحالي. ثم فجأة تندهش بشدة عندما تنتبه إلى نفسها وقد غرقت في مثل هذه التخيلات .

*

في ذلك الوقت تعرفت «أوتاما» على «أوكادا». ولم يكن بالنسبة إليها

إلا مجرد أحد الطلاب الذين يمرون أمام شرفة المنزل. وعلى الرغم من أنه شاب جميل أحمر الوجه عظيم المحيا بارز وسط أقرانه، انتبهت «أوتاما» إلى أنه ليس مغرورًا ولا يتصرف بتعال، وبدأت تفكر أنه ذو صفات شخصية نادرة في هذا الزمن. ومنذ ذلكَ الحين أصبحت تنتظر كل يوم وهي تنظر خارج الشرفة وتفكر هل يا ترى سيمر ذلك الشاب اليوم أيضًا أم لا؟

كانت «أوتاما» قد صارت تشعر تلقائيًّا بألفة قلبية تجاهه من قبل أن تعرف اسمه أو أين يسكن. ثم فجأة بلا وعي ابتسمت له من جانبها، كانت تلك واقعة لحظية شُلت فيها حركة التحكم في مشاعرها بسبب استرخاء نفسي، ولم تفعل «أوتاما» الهادئة العاقلة ذلك بقلب متعمد ونية سيئة، وهي أن تعرض الحب عليه من ناحيتها بوضوح .

وعندما أمسك «أوكادا» بقبعته وألقى إليها تحية برأسه، أحست «أوتاما» بقلبها يطير وشعرت باحمرار وجهها. إن مشاعر المرأة المباشرة في منتهى الحدة. كانت «أوتاما» تعرف بوضوح أن خلع «أوكادا» لقبعته لم يكن إلا حركة عفوية وليست متعمدة. ولكنها شعرت بسعادة لا حد لها بدخول تلك العلاقة الصامتة الغريبة لطور جديد، على الرغم من أسياخ الشرفة التي تبعد بينهما، وظلت تكرر كثيراً رسم منظر «أوكادا» وهو يخلع قبعته في خيالها مرارًا وتكرارًا .

*

عندما تسكن المحظية في بيت سيدها، تكون في موقف الحماية العادية في المجتمع، ولكن المحظية في بيت منفصل تجد معاناة لا يعرفها الأشخاص العاديون. في أحد الأيام دخل بيت «أوتاما» رجل في حدود الثلاثين من العمر يرتدي معطفًا نصفيًّا ـ من تلك المعاطف التي عليها علامة أحد المحلات ـ مقلوبًا، وقال لها إنه يريد العودة إلى بلدته في منطقة «شيموسا»، ولكنْ به ألم في قدمه يجعله لا يقدر على السير، وطلب منها شيئًا من المال على سبيل الصدقة. فلفت «أوتاما» ورقة بها قطعة معدنية بعشرة سنَّات وسلمتها لـ«أوميه» كي تعطيها إياه، ففتح الورقة ونظر فيها قائلًا :

ـ عشرة سنَّات فقط !

وابتسم هازئًا، وقذف بها وهو يقول :

ـ كل الناس تخطئ الفهم، فهل لك أن تسمعيني؟

احمر وجه «أوميه» بشدة، والتقطت النقود، ثم، وهي تصعد إلى داخل البيت، صعد بعدها الرجل بلا استحياء، وجلس في مواجهة مجمرة الحطب التي كانت «أوتاما» تغذيها بالفحم. وظل يقول كلامًا كثيراً، ولكن لم يمكن الإمساك بتلابيب أية قصة. وكرر كثيراً مقولة: «وقتما كنت سجينًا حدث كيت وكيت»، وبعد أن يتفاخر، تجده قد بدأ في البكاء. وكانت تفوح منه رائحة الخمر لدرجة آلمت صدر «أوتاما ».

تحاملت «أوتاما» على نفسها لكتم رغبتها في البكاء من الخوف،

وأخرجت أمام عينيه ورقتين من فئة الخمسين سنًّا الزرقاء التي تشبه في شكلها لعبة الورق التي كانت منتشرة في ذلك الوقت، ولفتهما في ورقة وأعطتهما في يد الرجل صامتة. اكتفى الرجل على غير المتوقع بدون حركة، وقال :

ـ تكفي ورقتان من ورق النصف ين. أنتِ امرأة ذكية يا أختاه، بالتأكيد ستنجحين في حياتك .

ورحل مترنحًا يجر قدميه .

وبسبب وقوع تلك الحادثة، ولأن «أوتاما» صارت لا تتحمل قلق القلب، تعودت على مقولة «شراء الجار»، فكلما طبخت طعامًا متميزًا، جعلت «أوميه» تحمل طبقًا منه وتذهب به إلى معلمة الحياكة التي تسكن بمفردها على يمين دارها .

كانت المعلمة تسمى «أوتيه»، وهي امرأة بيضاء اللون تخطت الأربعين من العمر ولكن تبدو نوعًا ما أصغر من ذلك بكثير. وكانت قد توظفت في بيت عائلة الحاكم الإقطاعي «مايدا» حتى بلوغها الثلاثين من العمر، ثم تزوجت ولكن زوجها توفي بعد ذلك بفترة قصيرة. وكانت تتحدث بطريقة راقية للغاية، وتكتب الخط الرسمي بشكل جيد. وعندما قالت «أوتاما» لها إنها تريد تعلمِ ذلك الخط أقرضتها كتب تعليم فنون الخط .

في صباح أحد الأيام جاءت «أوتيه» من المدخل الخلفي لتشكر

«أوتاما» على طعام كانت قد أرسلته لها في اليوم السابق. وخلال المحادثة بينهما وهما واقفتان قالت لها «أوتيه »:

ـ أنت تعرفين السيد «أوكادا»، أليس كذلك؟

لم تكن «أوتاما» تعرف اسم «أوكادا» بعد. ومع ذلك مر بخاطرها سريعًا كالصاعقة أن معلمة الحياكة تقصد ذلك الطالب، وأن سبب قولها ذلك أنها قد رأتها وهي تحييه مبتسمة له، وأنه يجب عليها في هذه اللحظة أن تدعي ولو كرهًا منها أنها تعرفه. أجابت بشكل سريع حتى لا تتعرف «أوتيه» على أثر ترددها وحيرتها للحظات وقالت :

ـ نعم .

قالت «أوتيه »:

ـ رجل بمثل تلك الوسامة، ويقال إنه رائع في كل تصرفاته وصفاته .

قالت «أوتاما» بجراءة :

ـ من العجيب أنك تعرفينه .

ـ لقد أخبرتني مالكة «مسكن كاميجو» أنه لا يوجد شخص آخر مثله من بين كل هذا العدد الكبير من الطلبة الذين يسكنون عندها .

قالت «أوتيه» ذلك ثم رحلت .

أحست «أوتاما» أنها قد مُدحت بشخصها. ثم ظلت تكرر في فمها كلمتي: «كاميجو»، «أوكادا ».

الفصل السابع عشر

لم تنقص زيارات «سويزو» إلى بيت «أوتاما» مع مرور الوقت، بل على العكس زادت. فعلاوة على مجيئه ليلاً في وقت محدد، صار يأتي كثيراً في أوقات غير منتظمة. وسبب حدوث ذلك هو إزعاج زوجته «أوتسونه» له والتصاقها به أينما ذهب. تقول له :

ـ افعل بي شيئًا، افعل بي شيئًا .

فكان يهرب فجأة من البيت ملتمسًا الذهاب إلى «موئنزاكا». كان «سويزو» دائمًا في تلك الحالة يقول لزوجته :

ـ لا يوجد شيء أفعله، لنبقَ كما نحن عليه حتى الآن .

فتبدأ زوجته في استعطافه بقولها إنه ينبغي فعل شيء .

ثم تعدد له العوائق المختلفة التي تواجه تغيير حياتها الحالية، مثل عدم قدرتها على العودة إلى بلدتها، وعدم قدرتها على فراق الأطفال، وكبر عمرها... إلى آخره. ورغم ذلك يكرر لها أنه لا يوجد ما يجب فعله. وأنه لا بأس من عدم فعل أي شيء. وفي أثناء ذلك تغضب «أوتسونه» أكثر وأكثر، ويصير التعامل معها مستحيلاً. وعند هذا الحد صار يترك لها البيت ويهرب. كان «سويزو» يندهش جدًّا مما تقوله «أوتسونه» بسبب أن تفكيره في أي أمر يكون منطقيًّا عقلانيًّا طبقًا لعلم الحساب. كان يشعر أنه ينظر إلى شخص في غرفة مغلقة من ثلاث جهات

ومفتوحة من جهة واحدة فقط، ويقف بالضبط معطيًا ظهره للجهة الوحيدة المفتوحة، ويعاني ويتألم من عدم استطاعته الذهاب في أي اتجاه. أليس الباب مفتوحًا على مصراعيه؟ لا يوجد ما يقوله «سويزو» لهذا الشخص إلا لماذا لا تنظر إلى الخلف؟ «أوتسونه» حاليًّا لم ترتح فقط مما كانت عليه حتى الآن، ولكنها كذلك غير واقعة تحت أية ضغوط ولا تشعر بأية معاناة أو قيود، ولو قليلًا. بالطبع لا يوجد خلاف أنه حدث شيء جديد لم يكن موجودًا وهو وضع «موئنزاكا»، ولكنه لم يكن مثل بقية رجال المجتمع قد صار باردًا وعنيفًا تجاه زوجته بسبب ذلك. بل على العكس صار أكثر عطفًا وحنانًا عليها من ذي قبل ويعاملها برقة وتسامح. ويرى أن الباب ما زال مفتوحًا على حاله ولم يتغير شيء .

بالطبع تفكير «سويزو» هذا يختلط بأنانيته. السبب أنه حتى لو لم يتغير تعامله مع زوجته عما كان عليه في السابق من الناحية المرئية، بل وحتى لو لم تتغير طريقة كلامه وأسلوبه في التعامل، إلا أنه الآن مع وجود «أوتاما» من المستحيل أن يُطلب منه الشعور بالمشاعر نفسها التي كان يشعر بها في الماضي عندما لم تكن موجودة. أليست «أوتاما» عبارة عن شوكة في عين «أوتسونه»؟ أليست النية معدومة لديه في نزع تلك الشوكة من عينها وإراحتها؟ ولكن «أوتسونه» غير واعية إلى ذلك بوضوح لأنها في الأصل امرأة لا تفكر في الأمور بشكل منطقي عقلاني، ولكن «لم يعد الباب مفتوحًا كما كان» مثلما يقول «سويزو». فالباب الذي تطل منه «أوتسونه» على راحة الحاضر وأمل المستقبل، عليه ظلال سوداء وكثيفة جدًّا .

في أحد الأيام غادر «سويزو» البيت فجأة هربًا من زوجته بعد عراك معها . كان الوقت قد تخطى الساعة العاشرة صباحًا. وفكر أن يذهب مباشرة إلى «موئنزاكا»، ولكن لسوء حظه كانت الخادمة قد اصطحبت الطفلين الصغيرين في طريق حي «ناناماجاري»، لذا تعمد السير مسرعًا وكأنه في عجلة من أمره مخترقًا الطريق ومتجهًا ناحية منحدر «كيريتوشي»، من دون أن يكون قد فكر في الذهاب إلى مكان محدد. ثم مشى «سويزو» من حي «تنجين» إلى حي «جوكن». وهو يهمس من فمه بكلمات نابية مثل: «اللعنة»، «خراء»، «حيوانات» و«بهائم»، إلخ. وعندما كان على وشك عبور جسر «شوهيه»، جاءت فتاة «جيشا» من الناحية الأخرى. واعتقد برهة أنها تشبه «أوتاما» في بعض ملامحها، ولكن عندما دقق النظر فيها جيدًا، كان وجهها مليئًا بالنمش. وفي الوقت نفسه مع اعتقاده أن «أوتاما» أكثر جمالًا، شعر قلبه بالمتعة والرضا، فأوقف قدميه عن الحركة فترة على الجسر، وألقى نظرة على ظلال ظهر فتاة «الجيشا» ذات الوجه المليء بالنمش، التي خرجت على الأرجح من بيتها للتبضع أو ما شابه، واختفت في حارة جانبية من حي «كوبوشو ».

مشى «سويزو» متسكعًا باتجاه «ياناجيهارا» من عند مقدمة جسر «مجانيباشي» الذي كان وقتها ما زال جديدًا، غريب المنظر، يرتاده الزوار. كانت توجد مظلة كبيرة مقامة أسفل شجرة صفصاف على ضفة النهر، ورجل يجعل فتاة في الثانية أو الثالثة عشرة من عمرها ترقص رقصة «كابوري» الفكاهية تحتها. وتجمع حولها عدد من المارة يشاهدونها كما هي العادة في تلك الحالات . عندما أوقف «سويزو»

قدميه لحظة ونظر إلى الرقص، كان رجل يرتدي سترة نصفية من تلك التي بها علامة تجارية في الظهر على وشك الاصطدام به، وتفاداه بصعوبة ثم سار في طريقه. التفت «سويزو» بعين متحفزة للخلف فالتقت عيناه بعيني ذلك الرجل، الذي عدل من وجهته وانصرف سريعًا، معطيًا له ظهره. همس «سويزو»، وهو يبحث في جيوبه الداخلية بيديه اللتين كان يضعهما داخل أكمامه، قائلًا :

ـ ما هذا؟ ألا ينظر أمامه؟ !

بالطبع لم يكن ذاك الرجل قد أخذ منه شيئًا. فقد كان ذلك «النشال» بالفعل لا يرى أمامه. يكون «سويزو» عصبي المزاج في الأيام التي يتعارك فيها مع زوجته، ولذا فهو ينتبه إلى أشياء لم يكن لينتبه لها في الأوقات العادية. حاسته الحادة في العادة تصبح أكثر حدة، لدرجة أنه يحس بنية «النشال» في سرقته قبل أن تبدأ. تقل بدرجة ما قوة تحكم «سويزو» في انفعالاته النفسية، التي يفتخر بأنه يقدر عليها حتى في موقف مثل هذا. ولكن لا يعرف ذلك أغلبية الناس ولا يفهمونه. فإذا تفحص شخص لديه حدة كبيرة للغاية في الحس «سويزو» بدقة، لا بد أن ينتبه إلى أنه أصبح طليق اللسان أكثر مما كان عليه في الماضي، وإلى أن اهتمامه ورعايته للناس، ومخاطبتهم بكلمات تبدو حميمية أثناء كلامه وسلوكه ذلك، غير طبيعية، ومتسرعة بعض الشيء .

اعتقد «سويزو» أنه قد فات وقت طويل منذ أن غادر بيته هاربًا من العراك مع زوجته، فنظر إلى ساعة جيبه مع عودته للطريق على ضفاف

النهر. ولكنها لم تبلغ الحادية عشرة صباحًا بعد. لم يمر منذ خروجه من البيت إلا ثلاثون دقيقة فقط .

مرة أخرى ظل «سويزو» على حاله، ينتقل من حي «أواجيتشو» إلى حي «جينبوتشو» بلا هدف يقصده، يذهب سائرًا على قدميه، وكأنه ذاهب فجأة في شأن عاجل. كان وقتها يوجد محل يقع قبل حي «أيماكاوا كوجي» قليلاً، عليه لوحة وجبة «الأوتشازيكيه »(********) بمبلغ 12 سنًّا فقط، يضع لك صينية بها «مزَّة» وشاي أخضر مع الوجبة الأساسية. كان «سويزو» على علم بهذا المطعم، وفكر أن يمر عليه ليتناول به وجبة الغداء، ولكن الوقت كان لا يزال مبكرًا لفعل ذلك. وبعد أن تخطى ذلك المطعم، انعطف ناحية اليمين ووصل إلى الحي الواسع قبل جسر «مانايتا». لم يكن ذلك الحي مثل ما هو الآن، ملتصقًا باتساع بحي «سوروجاداي». كان تقريبًا عبارة عن «حارة سد» تنتهي عند المنعطف الذي جاء منه «سويزو» الآن، ومن هناك تمر حارة جانبية ضيقة سماها طلبة كلية الطب «الزائدة الدودية»، أمام معبد «شنتو» الذي حُفرت على أعمدته حروف الفنان «تيشو ياما أوكا» الشهير. وذلك سبب تسمية الحي الواسع الذي كان قبل حي «مانايتا» والذي يشبه الحارة السد باسم «الزائدة الدودية ».

عبر «سويزو» جسر «مانايتا». وكان يقع على الجانب الأيمن منه محل لبيع طيور الزينة. وتُسمع منه زقزقة مرحة ومبهجة لأنواع عديدة من الطيور. وعندما مر «سويزو» من أمام ذلك المحل الذي لا يزال موجودًا حتى الآن توقف متأملاً الأقفاص التي بها أنواع مختلفة من الببغاء

والمعلقة فوق الإفريز بارتفاع عال، وأقفاص الحمام الأبيض والحمام الكوري الموضوعة في الأسفل، ثم بعد ذلك نقل عينيه إلى الداخل حيث أقفاص الطيور الصغيرة مرتبة بعناية على عدة طبقات من الرفوف. تلك الطيور الصغيرة هي الأكثر نشاطًا سواء من حيث الزقزقة أو الحركة والطيران داخل الأقفاص، ولكن كانت طيور الكناري المستوردة ذات اللون الأصفر المشرق الأكثر لفتًا للانتباه، بين ذلك العدد الكبير من الأقفاص. ولكن الآن وبعد طول مشاهدة جذبت نظر «سويزو» عصافير حمراء، تلون جسدها الصغير بلون غامق. فجأة فكر أنه سيكون من اللائق جدًّا لو اشترى تلك العصافير وذهب بها إلى «أوتاما» وأعطاها إياها لتعتني بها. وعندها سأل صاحب المحل العجوز الذي يجلس بلا اهتمام ولا تبدو عليه الرغبة في البيع عن سعرها. واشترى زوجًا من العصافير الحمراء. وبعد أن دفع الثمن، سأله العجوز كيف سيحملهما. فأجابه بالسؤال إن لم يكن سيعطيهما له في قفص، فنفى ذلك. وفي النهاية اضطر إلى شراء قفص لهما وجعله يضعهما فيه. أدخل العجوز يده المليئة بالتجاعيد في القفص بعنف وأمسك زوجًا من العصافير ووضعهما في القفص الفارغ. فسأله :

ـ هل بهذا تعرف أنهما ذكر وأنثى؟

رد البائع بنفور :

ـ أجل .

عاد «سويزو» إلى اتجاه جسر «مانايتا» حاملًا معه قفص العصافير الحمراء. هذه المرة أصبحت طريقة سيره هادئة، وكان من وقت لآخر يرفع القفص وينظر متلصصًا على الطيور، حتى اختفى تمامًا مزاجه السيئ بعد تعاركه في المنزل ومغادرته له هاربًا، وكأنه قد أُزيل ومسح بالكامل، وطفا على السطح القلب الرقيق الذي يختفي في الوقت العادي داخل ذلك الرجل. قبضت الطيور داخل القفص بقوة على خشبة الوقوف ربما خوفًا من اهتزازات القفص وضمت أجنحتها بلا أية حركة مطلقًا. في كل مرة يتلصص «سويزو» عليهما بالنظر يفكر في رغبته في الذهاب سريعًا إلى «موئنزاكا» حاملًا إياهما ليعلقهما بجوار الشرفة .

عندما مر «سويزو» بشارع «إيماكاوا» عرج على مطعم «الأوتشازيكيه» لتناول وجبة الغداء. وضع قفص العصافير الحمراء في مواجهة صينية الطعام المصبوغة بالأسود التي وضعتها النادلة على الطاولة، وأثناء تناوله لوجبة الغداء كانت عيناه تنظران إلى الطيور الجميلة وقلبه يفكر في «أوتاما» الأجمل، فشعر أن وجبة «الأوتشازيكيه» ـ التي لا تعد طعامًا فاخرًا ـ في غاية اللذة والإمتاع .

الفصل الثامن عشر

من دون سابق تخطيط، صارت العصافير الحمراء التي اشتراها «سويزو» لـ«أوتاما»، واسطة تبادل الحديث بينها وبين «أوكادا».

ولقد ذكرني هذا الحديث بحالة المناخ في ذلك العام. في تلك الفترة كان والدي، المتوفى حاليًّا، يزرع نباتات خريفية في الحديقة الخلفية لمنزلنا في منطقة «كيتاسنجو». ولذا عندما كنت أعود من مسكن الطلبة في «كاميجو» إلى منزل أبي يوم السبت من كل أسبوع، كنت أجده يشتري عديدًا من أعواد نبات الخيزران، بسبب اقتراب ما يُسمى بـ«اليوم العاشر بعد المائتين»، وموسم الأعاصير، ويوثقها ويربط كل واحد منها مع نبات الكتان ليجعله واقفًا. ولكن اليوم العاشر بعد المائتين مر بسلام. فقال بعد ذلك إن الأخطر هو اليوم العشرون بعد المائتين. ولكن ذلك اليوم مر أيضًا بسلام. ومنذ تلك الفترة ظلت حالة السحب غير مستقرة، وكان الطقس يبدو مضطربًا كل يوم. وأحيانًا ما يكون الجو حارًّا رطبًا لدرجة تعتقد معها أن الصيف عاد مرة أخرى، وصارت الرياح التي تهب من الاتجاه الجنوب الشرقي تبدو كما لو كانت ستشتد وتقوى، ولكنها تتوقف فجأة. قال والدي إنه «الزوال التدريجي» لليوم العاشر بعد المائتين.

في غروب يوم أحد كنت عائدًا من منزل العائلة في «كيتاسنجو» إلى «مسكن كاميجو» وكان الطلبة جميعًا في الخارج، وكان المسكن هادئًا تمامًا. دخلت غرفتي، وظللت فترة شارد الذهن لا أعمل شيئًا، وفجأة

سمعت صوت احتكاك علبة الثقاب في الغرفة المجاورة التي كنت أعتقد حتى تلك اللحظة أنها خاوية. ولأنني كنت أشعر بالوحدة، على الفور تكلمت مع ساكن الغرفة :

ـ «أوكادا»، أنت هنا؟

ـ أجل .

كان صوتًا لا تدري كنهه هل هو إجابة أم لا. بعد أن أصبحنا أنا و«أوكادا» صديقين لم نعد نسلك معًا سلوك الغرباء في الحديث، ولكن على الرغم من ذلك كان الرد وقتها مختلفًا .

فكرت في عقلي أنه بما أنني كنت في غرفتي شارد الذهن، فلا بد أن «أوكادا» كان شارد الذهن كذلك، يفكر في أمر ما . فكرت بهذا الشكل وفي الوقت نفسه أحسست بالرغبة في رؤية كيف يكون وجه «أوكادا» الآن. وعندها جربت أن أحادثه مرة أخرى :

ـ هل تسمح لي بإزعاجك قليلًا؟

ـ لقد جئت في الوقت المناسب، في الواقع لقد عدت لغرفتي منذ قليل وجلست شارد الذهن، إلى أن أتيت أنت ورجعت لغرفتك بجواري وأخذت تحدث أصواتًا، فجعلتني أحاول النهوض وإضاءة الأنوار .

هذه المرة كان صوته واضحًا .

خرجت إلى الممر، وفتحت باب غرفة «أوكادا». كان «أوكادا» فاتحًا الشرفة التي تقع في المواجهة تمامًا من «البوابة الحديدية» للجامعة، ويضع مرفقه على مكتبه، وينظر إلى الظلام في الخارج. كانت الشرفة بها أسياخ حديدية عمودية، وفي الخارج شجرتان أو ثلاث من أشجار السرو المزروعة في المساحة بين المبنى والسور .

ـ ألا ترى أن الجو اليوم أيضًا حار وخانق بشكل غريب؟ في غرفتي توجد بعوضتان أو ثلاث مزعجة بشكل لا يحتمل .

جلست متربعًا بجانب مكتب «أوكادا» وقلت :

ـ حقًّا إنه كذلك. والذي يطلق عليه «الزوال التدريجي لليوم العاشر بعد المائتين ».

ـ نعم، لقب «الزوال التدريجي لليوم العاشر بعد المائتين» مسلٍّ حقًّا. ربما كان الأمر هكذا. لأن السماء تمتلئ بالغيوم ثم فجأة تصبح صافية، ظللت مترددًا: هل أخرج أم لا؟ وفي النهاية بقيت مستلقيًا طوال فترة الصباح وقرأت رواية «كينبيباي» التي استعرتها منك. وبعد ذلك ولأني صرت شارد الذهن بعد تناول وجبة الغداء، خرجت متسكعًا للتريض فقابلت موقفًا غريبًا .

قال «أوكادا» ذلك وهو ينظر ناحية الشرفة من دون أن ينظر إليَّ .

ـ أي موقف؟

حوَّل «أوكادا» وجهه ناحيتي :

ـ لقد قمت بطرد ثعبان من بيت .

ـ هل كان ذلك لإنقاذ امرأة جميلة؟

ـ لا. الذي أنقذته كان طائرًا، ولكن الأمر يتعلق كذلك بامرأة جميلة .

ـ يبدو أنه حديث ممتع. أسمعني الحكاية من فضلك .

الفصل التاسع عشر

حكى لي «أوكادا» القصة التالية :

في وقت الظهيرة حيث تطير السحب مضطربة، وتزوم الرياح العنيفة ملقية بزعابيبها واحدة بعد الأخرى في تصادم، وعباب الطريق يرتفع عاليًا ثم يهبط، خرج «أوكادا»، الذي آلمت رأسه الحكايات الصينية التي قرأها لمدة نصف يوم، من «مسكن كاميجو» من دون أن يكون له هدف محدد يسعى إليه، فترك عنانه لحكم العادة، وانعطف باتجاه «موئنزاكا». كان شارد الذهن. وعلى الرغم من أن كل روايات الصين على الحال نفسها، فإن الأحداث في بداية رواية «كينبيباي» تستمر على وتيرة هادئة ورتيبة على مر عشر صفحات أو عشرين صفحة، ثم فجأة وكأنك على وعد معها، تتطور إلى ما لا يمكن تصديقه من الغرائب والعجائب .

قال «أوكادا »:

ـ وبسبب أن ذلك كان بعد قراءتي لتلك الرواية، أعتقد أنني كنت حتمًا أمشي بوجه يبدو عليه البله والغباء .

بعد فترة وعندما صار السور الحجري لقصر «إيواساكي» في الجهة اليمنى، وقد صار الطريق منحدرًا عند أطراف الأقدام، انتبه إلى تجمع من الناس يقفون على الجانب الأيسر من الطريق. كان ذلك بالضبط

أمام منزل يمر به دائمًا وينظر إليه بشكل متعمد، كان ذلك الجزء فقط هو الذي أخفاه عني «أوكادا» عندما حدثني بهذا الأمر. كان المجتمعون من النساء فقط، وكن حوالي عشر تقريبًا. ولأن الأغلبية منهن فتيات صغيرات، فقد أحدثن ضوضاء بما يشبه زقزقة العصافير. وجّه «أوكادا» قدميه، اللتين كانتا تسيران حتى الآن في منتصف الطريق، خطوتين أو ثلاث خطوات ناحيتهن وهو لا يعلم ماذا يحدث، وكذلك من دون أن يكون لديه وقت لإبداء شعور بالفضول .

ولأن كل الفتيات كن يركزن أنظارهن على شيء واحد فقط، تتبع «أوكادا» مسار نظراتهن حتى وجد مصدر انزعاجهن. وقد كان قفص طيور معلقًا فوق شرفة ذلك البيت. وبالطبع وجد سببًا لا غبار عليه لصراخهن. فـ«أوكادا» نفسه فوجئ للغاية عندما رأى المشهد داخل القفص. طائر يرفرف بجناحيه الصغيرين، ويجتهد في الطيران داخل القفص الضيق صارخًا. وعرف أن هناك ما يقلق الطائر ويرعبه بشدة، وعندما أمعن النظر وجد ثعبانًا كبيراً من فصيلة «أفعى الجرذان» يدخل رأسه داخل القفص. بدا أنه قد أدخل رأسه بين أعواد البامبو التي تأخذ شكل المسامير، ولكن القفص لم ينكسر مطلقًا حسب ما رأى. كان الثعبان قد فتح باب القفص الذي في حجم جسده وأدخل منه رأسه. تقدم «أوكادا» خطوتين أو ثلاثًا للأمام ليستطيع الرؤية بشكل أفضل . وأصبح يقف خلف الفتيات مباشرة وكتفه في مستوى أكتافهن. وبدا كأن الفتيات قد اتفقن على نية استقباله على أنه المخلص، فأفسحن الطريق، جاعلات «أوكادا» في المقدمة. فاكتشف عندها حقيقة جديدة . وهي أن الذي في القفص ليس طائرًا واحدًا . فبخلاف الطائر الذي

يجوب أركان القفص طيرانًا يوجد طائر آخر شبيه له، باللون نفسه، في فم الثعبان. ومع أن الأمر لم يزد على أن جناحًا واحدًا دخل بأكمله في فم الثعبان، إلا أن الطائر بدا كما لو كان ميتًا، فقد كان الجناح الآخر متدليًا بلا حياة والجسد قد صار مثل قطعة من الصوف المنتفش .

كانت المرأة التي بدت أنها صاحبة المنزل، تبدو كذلك أكبر من «أوكادا» في العمر قليلاً، وتتحرك في اضطراب وعجلة، وخاطبته. وكان محتوى الحديث طلبًا منها أن يفعل شيئًا تجاه ذلك الثعبان .

وأضافت المرأة :

ـ لقد حضر جميع من كنَّ في البيت المجاور اللائي يتدربن على العمل، ولكنهن فتيات صغيرات لا يستطعن عمل شيء .

قالت فتاة صغيرة من بين الفتيات :

ـ منذ سمعت هذه السيدة ضجيج الطيور، فتحت الباب وعندما اكتشفت وجود الثعبان، صرخت بأعلى صوت لها، فتركنا عملنا وخرجنا نستطلع الأمر، ولكننا بالفعل لم يكن بيدنا شيء نفعله، معلمتنا غير موجودة، وحتى لو كانت موجودة فهي امرأة عجوز لا تقدر على فعل شيء .

لم تكن المعلمة تأخذ عطلة أيام الآحاد بل في اليوم الأول واليوم السادس عشر من الشهر، ولذا فالتلميذات فقط هن من تجمعن .

عندما حكى لي «أوكادا» هذه الحكاية قال :

ـ كانت صاحبة المنزل تلك امرأة على درجة عالية جدًّا من الجمال .

ولكنه لم يقل لي إنها امرأة يعرفها من قبل، وكلما يمر من أمام بيتها يقوم بتحيتها .

قبل أن يرد «أوكادا» على ذلك الكلام كان قد اقترب من القفص ونظر لحالة الثعبان. كان القفص يميل ناحية بيت معلمة الحياكة المجاور، ويتدلى من النافذة، والثعبان قد أدخل رأسه مقتربًا من القفص ومستهدفًا إياه بعد أن تحامل على إفريز الحائط من المساحة التي بين ذلك البيت والبيت المجاور. وكان جسد الثعبان كأنه حبل معلق اخترق الذراع الخشبية للإفريز، وذيله لا يزال مختفيًا خلف صدر العمود الذي في الركن. إنه ثعبان كبير الحجم. على الأغلب هو يعيش في مكان ما من منطقة «كاجاياشيكي» التي تنبت بها الحشائش والأشجار، وقد شعر باختلاف حالة الضغط الجوي في الآونة الأخيرة بسبب الطقس، فخرج من وكره تائهًا، وأثناء ذلك اكتشف قفص الطيور هذا. احتار «أوكادا» قليلاً فيما يجب عليه عمله. كان عدم استطاعة الفتيات فعل شيء إزاء ذلك الثعبان أمرًا مفهومًا تمامًا .

قال «أوكادا »:

ـ هل لي بآلة حادة؟

فقالت المرأة مالكة البيت لواحدة من الفتيات الصغيرات :

ـ اذهبي وأحضري سكينًا من المطبخ .

وعلى ما يبدو أن تلك الفتاة هي خادمتها، كانت ترتدي زي «كيمونو» منزليًّا مثل البنات الأخريات اللاتي يتعلمن الحياكة، وتربط فوقه وشاحًا قطنيًّا خفيفًا بلون بنفسجي. نظرت الخادمة إلى سيدتها بعينين بهما بعض الرفض لأنها على ما يبدو قد رأت أن قطع جسد الثعبان بسكين يتم استخدامها في قطع الأسماك أمر غير مقبول. فقالت لها سيدتها :

ـ لا بأس من فعل ذلك، وسوف أقوم بشراء واحدة أخرى لك لكي تستخدميها في إعداد الطعام .

دخلت الخادمة مسرعة إلى المنزل، وكأنها قد اقتنعت، وعادت ممسكة بسكين قطع الأسماك .

أخذ «أوكادا» منها السكين وكأنه كان ينتظرها على أحر من الجمر، وخلع القبقاب الذي كان يلبسه، ووضع إحدى قدميه على إفريز النافذة. كان الجمباز هو إحدى مهارات «أوكادا». كانت يده اليسرى تقبض بالفعل على العمود الخشبي لإفريز الحائط. ولأنه كان يعلم أن سكين الأسماك حتى ولو كانت جديدة فهي ليست حادة بدرجة كافية، لذا لم يحاول من البداية أن يقطع الثعبان بضربة واحدة. ولكنه قام بتثبيت جسد الثعبان على العمود الخشبي مستخدمًا السكين، ثم حرك حد السكين مرتين أو ثلاثًا يمينًا ويسارًا على جسده. أحس «أوكادا» بيده

وهي تقطع قشر جلد الثعبان وكأنه يشق قطعة من الزجاج. وقتها أصيب الثعبان ـ الذي ابتلع رأس الطائر بالفعل بعد أن كان يقبض على جناحه فقط ـ بجرح غائر في جسده، فأخذ يتلوى كموج البحر من دون أن يحاول لفظ الصيد الثمين، وكذلك من دون أن يخرج عنقه من القفص. استمر «أوكادا»، من دون أن يفك قبضة يده، في تحريك السكين على جسد الثعبان خمس أو ست مرات أخرى، وعندها أخيراً قطعت السكين غير الحادة جسد الثعبان إلى قطعتين وكأنه لحم فوق الوضم. ثم سقط النصف الأسفل من جسد الثعبان الذي زادت حركاته الموجية بلا توقف، مرتخيًا أولًا فوق مكان تجمع الأمطار بين البيتين والمزروع به نبات الزنبق. بعد ذلك انحرف نصف الثعبان الأعلى من فوق إفريز النافذة التي زحف منها داخلًا البيت، وتدلى وعنقه لا يزال محشورًا داخل القفص كما هو. كان الرأس، الذي تضخم بسبب ابتلاعه نصف الطائر في فمه، عالقًا غير قادر على الإفلات من خيزران القفص الذي انثنى في شكل قوس من دون أن ينكسر، وأضيف ثقل نصف الثعبان العلوي فأصبح القفص مائلًا بزاوية 45 درجة. وكان الطائر الآخر الذي لا يزال على قيد الحياة، ويا للعجب لم يستنفد كل طاقاته ويجوب القفص مرفرفًا بجناحيه طائرًا بحثًا عن مخرج .

ترك «أوكادا » يده التي كانت قابضة على العمود الخشبي وقفز هابطًا إلى الأرض. كانت الفتيات يكتمن أنفاسهن حتى ذلك الوقت يراقبن الموقف، وعندما رأين ذلك دخلت اثنتان أو ثلاث عائدات إلى بيت معلمة الحياكة. ونظر «أوكادا» إلى وجه مالكة البيت وقال لها :

ـ يجب إنزال هذا القفص وإخراج رأس الثعبان منه .

كان نصف الثعبان العلوي لا يزال متدليًّا، تتساقط قطرات دماء سوداء من مكان الجرح على ألواح النافذة، ولذا لم يكن لدى مالكة البيت ولا الخادمة الصغيرة شجاعة الدخول إلى البيت وفك خيوط الكتان المعلق بها القفص .

وهنا زعق صوت من بين الجموع قائلًا :

ـ هل أقوم أنا بإنزال القفص لكم؟

نظر جميع الحاضرين إلى مصدر الصوت. كان صاحب الصوت صبي بائع «الساكي». أثناء قتل «أوكادا» للثعبان، لم يمر بمنحدر «موئنزاكا » أحد بسبب أن الوقت هو مساء يوم أحد قليل المارة، ولكن هذا الصبي مر بالمكان بمفرده، بينما تتدلى من يده قناني «الساكي» المربوطة بحبل من نبات اللبلاب ودفتر حسابات الزبائن، وظل يراقب عملية قتل الثعبان. وعندما سقط نصف الثعبان السفلي في مكان تجمع الأمطار، ألقى الصبي من يده قناني «الساكي » ودفتر الحسابات، والتقط على الفور حجرًا صغيراً وضرب به الجزء المقطوع من الثعبان، وأخذ يتأمل حركات النصف السفلي للثعبان الذي لم يمت بعد والذي كلما ضربه ضربة تحرك حركات موجية .

طلبت منه صاحبة البيت قائلة :

ـ إذا كان يمكنك ذلك، أرجو منك القيام به .

اصطحبت الخادمة الصغيرة الصبي ودخلا من باب السور المصنوع من الأسلاك إلى داخل البيت. وعلى الفور تسلق الصبي الذي ظهر من النافذة فوق ألواحها الموضوع عليها حوض الزنبق، ونزع خيوط الكتان المتدلي منها القفص من مسمار التعليق بعد أن مد جسده على الحد الأقصى لقامته . وهبط الصبي من فوق ألواح النافذة وهو ممسك بالقفص لأن الخادمة لم تأخذه منه، ودار ناحية الباب وخرج من البيت .

حذر الصبي الخادمة التي جاءت معه بخيلاء قائلاً :

ـ سأظل ممسكًا بالقفص ولكن يجب عليك إزالة قطرات الدماء لأنها سقطت على حصير «التاتامي ».

قالت سيدتها :

ـ حقًّا، يجب مسح الدماء فورًا .

عادت الخادمة من الباب إلى داخل البيت مرة أخرى .

نظر «أوكادا» إلى القفص الذي أتى به الصبي متفحصًا إياه. أحد الطيور توقف عن الطيران فوق الخشبة وهو يرتجف من الرعب. وكان أكثر من نصف جسد الآخر داخل فم الثعبان بالفعل. وعلى الرغم من قطع جسد الثعبان إلى نصفين، فإنه كان يحاول ابتلاع الطائر حتى آخر لحظة . نظر

الصبي إلى وجه «أوكادا» وقال :

ـ لنحاول إخراج الثعبان من القفص .

أجاب «أوكادا» وهو يضحك :

ـ حقًّا، يجب إخراجه، ولكن من الأفضل أن يتم إخراجه عن طريق إدخال رأسه كاملًا في القفص ونزعه من الباب. وإلا سينكسر الخيزران .

نزع الصبي رأس الثعبان بمهارة، وبعد أن استخرج الطائر من فمه باستخدام أصابعه وشد مؤخرة الطائر، قال :

ـ حتى بعد موته لا يريد ترك الطائر .

ربما شعرت فتيات مدرسة الحياكة اللائي بقين حتى ذلك الوقت أنه لا يوجد ما يستحق الرؤية، وعندها دخلن جميعًا إلى البيت المجاور من خلال الباب الموجود في سور المنزل .

نظر «أوكادا» حوله ثم قال :

ـ أخيرًا عليَّ أن أستأذن بالرحيل .

كانت السيدة صاحبة البيت تبدو كأنها شاردة الذهن تفكر في أمر ما،

وعند سماعها قول «أوكادا » ، نظرت تجاهه وبدت متحيرة فيما تريد قوله ثم أزاحت نظرها عنه. وعندها اكتشفت أن يده قد تلطخت قليلاً بالدماء . فقالت :

ـ مهلاً! يبدو أن يدك قد اتسخت ببعض الدماء .

ونادت الخادمة وأمرتها أن تذهب لإحضار إناء وإبريق غسل اليدين .

عندما حكى لي «أوكادا» تلك الحكاية، لم يقل وضع المرأة بالتفصيل، ولكنه قال :

ـ أنا اندهشت من اكتشاف المرأة لتلك الدماء القليلة للغاية التي في إصبع الخنصر .

أثناء غسل «أوكادا» ليده صاح الصبي، الذي كان حتى ذلك الحين يحاول إخراج جثة الطائر من فم الثعبان، قائلاً :

ـ يا للفظاعة !

وضعت صاحبة البيت، التي كانت تقف بجوار «أوكادا» ممسكة بمنشفة جديدة مطوية، إحدى يديها على سور البيت الذي ترك بابه مفتوحًا ونظرت للخارج وقالت :

ـ ماذا حدث أيها الصبي؟

قال الفتى وهو يفرد كلتا يديه ويسند بهما قفص الطيور :

ـ الطائر الذي لا يزال على قيد الحياة كان على وشك الهرب من الفتحة التي أدخل الثعبان منها رأسه .

كان «أوكادا» انتهى من غسل يده وقال للفتى وهو ينشف يده بالمنشفة التي ناولتها له صاحبة البيت :

ـ أبقِ على يديك كما هي .

ثم طلب شيئًا قويًّا مثل خيط أو خلافه لكي يغلق الفتحة التي في القفص بحيث لا يستطيع الطائر الهرب منها .

فكرت المرأة قليلاً ثم قالت :

ـ ما رأيك في خيط ربط الشعر؟

قال «أوكادا »:

ـ جيد جدًّا .

جعلت صاحبة البيت الخادمة تحضر خيط ربط الشعر من درج المرآة في بيتها .

أخرج «أوكادا» طرف الخيط ثم قال :

ـ في البداية هل سيكون ذلك هو نهاية المطلوب مني عمله يا ترى؟

فقالت صاحبة البيت، وهي تبدو محتارة في اختيار الكلمات، كأنها تضيف شيئًا :

ـ أشكرك كثيراً .

وجه «أوكادا» الكلام إلى الفتى :

ـ يا فتى، بعد تعبك هذا، أرجو أن تساعدنا في التخلص من جثة الثعبان .

قال الفتى :

ـ حاضر. سأرميه في أعمق مكان من قناة الصرف الموجودة أسفل المنحدر. ألا يوجد هنا حبل؟

ودار بنظره في المكان حوله .

ـ يوجد حبل وسأعطيه لك. انتظر قليلاً .

ثم أصدرت السيدة أمرًا ما إلى الخادمة .

وأثناء ذلك قال «أوكادا »:

ـ مع السلامة .

وهبط المنحدر من دون أن يلتفت للخلف .

*

«أوكادا»، الذي كان يتحدث إليَّ حتى الآن نظر إلى وجهي ثم قال :

ـ ألا ترى أنني بذلت جهدًا كبيراً في ذلك العمل؟ حتى لو كان من أجل امرأة جميلة .

قلت أنا له ما شعرت به وقتها في قلبي مباشرة من دون تجميل أو تزيين :

ـ حقًّا. فقتل ثعبان من أجل امرأة عمل مُسلٍّ يشبه حكايات أساطير الآلهة، ولكن على ما يبدو أن هذا الأمر لن ينتهي بهذا فقط .

قال «أوكادا »:

ـ لا تتغابَ يا رجل. لو كانت قصة لم تكتمل بعد، لم أكن لأقولها لك .

وكان يبدو أنه لم يقل ذلك بغرض التجمل الكاذب. ولكن حتى لو

افترضنا أن هذه هي نهاية تلك القصة فمن المؤكد أن «أوكادا» فكر ببعض مشاعر الحسرة ووجود شيء ما مفقود .

عندما سمعت حديث «أوكادا» قلت ببساطة إنه يشبه الأساطير الإلهية، ولكن في الواقع لقد أخفيت أمرًا آخر كان قد طرأ على بالي وقتها. وهو أنني فكرت أن «أوكادا» الذي خرج من مسكنه بعد قراءته لرواية «كينبيباي» قد قابل «كين لين» بطلة الرواية .

لم يكن في الجامعة طالب واحد لا يعلم اسم «سويزو» الذي كان يعمل «فرَّاشًا» يجلب المشتريات للطلاب وصار الآن مرابيًا. حتى ولو لم يقترض منه أموالًا فهو على الأقل يعرف اسمه. ولكن كان هناك من لا يعرف أن امرأة «موئنزاكا» هي محظية «سويزو». وكان «أوكادا » واحدًا من هؤلاء. لقد كنت وقتها لا أعلم شيئًا عن طبيعة تلك المرأة، ولكن كنت فقط أعرف أن الذي يحتفظ بمحظية في البيت المجاور لبيت معلمة الحياكة هو «سويزو». وقد كانت معلوماتي أوفر بكثير مقارنة بمعلومات «أوكادا ».

الفصل العشرون

شعرت «أوتاما»، في اليوم الذي قتل فيه «أوكادا» الثعبان من أجلها، أن تغيراً دراميًّا بدأ يحدث في مشاعرها تجاه «أوكادا» لدرجة أصابتها هي نفسها بالدهشة، وكان السبب تحدثها عن قرب لأول مرة معه بعد أن كانت حتى ذلك الوقت لا تتبادل معه إلا تحية صامتة بالعين .

توجد بضائع لا تفكر المرأة في المبادرة بشرائها على الرغم من إحساسها بالرغبة في امتلاكها. تقف المرأة في كل مرة تمر فيها من أمام خزانة العرض الزجاجية التي تتزين ببضائع مثل ساعات أو خواتم فتتأملها. لا تذهب المرأة خصيصًا إلى مكان تلك البضائع، ولكن عندما تمر من أمامها أثناء ذهابها لشراء شيء آخر فهي بالتأكيد تقوم بالنظر إليها. تتوحد رغبتها في الحصول على تلك البضائع مع يأسها الذي يجعلها في النهاية لا تصل إلى حد وضع خطة للقيام بالشراء، فتتولد لديها مشاعر أسى محبب ولكنه ليس حادًّا. وتستمتع المرأة بتذوق ذلك الإحساس. وعلى النقيض من ذلك، المنتج الذي تقرر المرأة شراءه يجعلها تشعر بآلام مبرحة. تعاني المرأة بسبب ذلك الشيء لدرجة لا تجعل لديها القدرة على البقاء في حالة هدوء. حتى ولو كانت تعلم أنها ستحصل عليه إذا انتظرت أيامًا قليلة، فليس لديها متسع للانتظار. بل إن المرأة في بعض الأحيان تذهب لشراء ذلك الشيء في هبَّة مفاجئة من دون التفكير في حر أو برد، ليل أو نهار، مطر أو ثلوج. وحتى المرأة التي تسرق ذلك الشيء خلسة من المحل، ليست بدعًا من النساء أو امرأة شاذة. ولكن لا يزيد الأمر على أنها امرأة صارت الحدود لديها بين

الشيء الذي تريد الحصول عليه والشيء الذي تريد شراءه مبهمة. كان «أوكادا» بالنسبة لـ«أوتاما» حتى ذلك الوقت هو شيء تريد فقط الحصول عليه، والآن تحول فجأة إلى شيء تريد شراءه .

واستغلت «أوتاما» فرصة إنقاذ «أوكادا» لطائرها الصغير، وفكرت في أن تتقرب إليه بأي طريقة. فكرت أولًا في أن تعطيه شيئًا ما هدية على سبيل الشكر من خلال «أوميه». حسنًا، ما هو هذا الشيء؟ تُرى هل تشتري له خصيصًا كعكة البقول الريفية من قرية «فوجيمورا»؟ ولكن هذا الأمر ليس به أي إبداع. إنه أمر اجتماعي وأي شخص يُحتمل أن يفكر بتلك الطريقة. ومع ذلك لو قررت أن تعطيه ذلك الشيء يدًا بيد، لربما سخر منها باعتبارها فتاة ساذجة ليس لديها خبرة في الحب. ولكنها لم تستطع الوصول إلى فكرة جيدة. وحتى لو توصلت إلى فكرة مبتكرة بشأن الهدية، فهل تجعل «أوميه» تعطيها له؟ توجد لديها بطاقة اسم صنعتها منذ أيام في حي «ناكاماتشي»، ولكنها ستحس بعدم الاكتمال لو وضعتها فقط مع الهدية. تتمنى لو كتبت له كلمة ما. يا له من أمر معقد! لقد أنهت دراستها بعد تخرجها من المدرسة الابتدائية ولم يكن لديها وقت بعد ذلك للتعلم، ولذلك فهي لا تستطيع كتابة خطاب بشكل يرضيها. وبالطبع سيختلف الأمر لو طلبت ذلك من جارتها معلمة الحياكة التي سبق لها الخدمة في بيت الحاكم الإقطاعي. ولكنها تبغض فعل ذلك. لم يكن في نيتها كتابة شيء في الخطاب تكره أن يطلع عليه أحد. ولكن على أي حال، هي لا تريد أن يعرف أي شخص أنها كتبت خطابًا إلى «أوكادا». حسنًا، ماذا حدث لها يا ترى؟

تمامًا مثلما يقطع المرء الطريق ذهابًا وإيابًا، كانت «أوتاما» تفكر في الأمر بالترتيب ثم تفكر فيه بالعكس، ثم تنساه مع انشغالها في وضع مساحيق الوجه، وإعطاء الأوامر لـ«أوميه» فيما يخص المطبخ، ثم تتذكره مرة أخرى. وفي أثناء ذلك جاء «سويزو». وتذكرت «أوتاما» الأمر أثناء صب «الساكي» له، فقال لها مؤنبًا :

ـ ما الذي تفكرين فيه بكل هذه الجدية؟

فأظهرت له وجهًا ضاحكًا بلا معنى وقالت :

ـ ماذا؟ أنا لا أفكر في شيء على الإطلاق .

وأخفت بقدر المستطاع خفقان قلبها. وبما أنها كانت حتى ذلك الوقت قد تمرنت وتدربت كثيراً، لم تكشف عينا «سويزو» الحادتان أنها تخفي عنه أي شيء. في الحلم الذي رأته بعد رحيل «سويزو»، أخيراً اشترت «أوتاما» علبة حلوى، وبسرعة أعطتها إلى «أوميه» وأخرجتها. ولكنها انتبهت بعد ذلك إلى أنها لم تضع فيها بطاقة اسمها ولا الرسالة، واستيقظت من النوم مع دهشتها .

في اليوم التالي، لم تستطع «أوتاما» رؤية وجه الحبيب بسبب أن «أوكادا» إما أنه لم يخرج للتنزه من الأصل أو ربما لم تره أثناء مروره. ثم مر «أوكادا» كما هي عادته من أمام النافذة في اليوم الذي يليه. مر بجوار النافذة بعد أن ألقى نظرة خاطفة، ولكن بسبب الظلام داخل البيت لم تستطع عيناه الالتقاء بعيني «أوتاما». ثم في اليوم التالي، عندما جاءت

الساعة التي يمر فيها «أوكادا» في المعتاد، أخرجت «أوتاما» مقشة الحشائش وأخذت تنظف المكان أمام بوابة الأسياخ التي على الأغلب لا يوجد بها أية قمامة، وخلاف الخف الذي ترتديه هي لا يوجد إلا قبقاب خشبي واحد فقط، أخذت تزجي الوقت بوضعه مرة يمينًا ومرة يسارًا. وكانت «أوميه» قد خرجت من المطبخ وهي تقول :

ـ سيدتي سأقوم أنا بذلك .

فأعادتها إلى المطبخ قائلة لها :

ـ لا عليك، راقبي أنت الطعام الذي على النار. فأنا أقوم بذلك لمجرد قضاء الوقت ولعدم وجود شيء آخر أفعله .

في تلك اللحظة بالضبط مر «أوكادا»، وخلع قبعته تحية لها. كانت «أوتاما» ممسكة بالمقشة كما هي وتقف بجوار عمود وضع المقشة، وقد احمرت وجنتاها، ولم تستطع قول شيء، تاركة «أوكادا» يهرب من يدها. ألقت «أوتاما» بالمقشة وكأنها عود فحم ملتهب أحرق يدها، وخلعت خفها، داخلة مسرعة إلى البيت .

جلست «أوتاما» بجوار مجمرة الحطب، وظلت تفكر وهي ممسكة بسيخ حديدي تعبث به في النار: «يا لي من امرأة حمقاء. لقد ظننت أن فتح النافذة في هذا اليوم البارد قليلاً والنظر للخارج أمر مضحك، فقمت بتمثيل عملية تنظيف البوابة التي لا داعي لها، ولكن في اللحظة الحاسمة التي انتظرت حدوثها لم أستطع قول ما أريده، مع أنني

أستطيع قول ما أريد قوله أمام سيدي مهما كان بمجرد ما أفكر فيه حتى لو كان الوقت غير مناسب. ولكن لماذا لم أستطع التحدث إلى «أوكادا»؟ على الأقل من الطبيعي أن أشكره على ما أسدى لي من عون. وربما بسبب عدم قولي له كلمة شكر اليوم أكون فقدت الفرصة لأشكره إلى الأبد. وحتى لو فكرت في إهدائه شيئًا بواسطة «أوميه»، فلا توجد في اليد حيلة إذا كنت لا أستطيع التحدث إليه عند لقائه بهذا الشكل. تُرى لماذا لم أستطع التحدث إليه وقتها؟ نعم، نعم. وقتها كنت أحاول قول شيء ما. ولكني فقط لم أعرف ما هو القول المناسب. فلا أستطيع أن أنادي عليه بألفة قائلة له: «يا سيد «أوكادا»!». ولكن مع ذلك فمن الصعب أن أقابله وجهًا لوجه وأقول مثلًا: «أهلًا، أهلًا». حقًّا عند التفكير في ذلك الأمر بهذا الشكل، فليس من المستغرب أن أكون في تلك الحالة من الارتباك. فعلى الرغم من تفكيري الآن بشكل هادئ ورزين، فأنا لا أصل للطريقة المثلى لمخاطبته. كلَّا، كلَّا. إن تفكيري بهذا الشكل يدل على أنني بالقطع حمقاء كما قلت. فلم يكن الأمر بحاجة إلى مناداته بشيء. كان الأفضل الخروج من البوابة نحوه على الفور. عندها لا ريب أنه كان سيتوقف عن السير. لو أنه فقط توقف، فقد كان يمكنني قول أي شيء، على سبيل المثال: «أشكرك على ما فعلته لي في ذلك اليوم العصيب»». أثناء تفكير «أوتاما» بهذا الشكل مع لعبها بحطب النار، بدأ غطاء إبريق غلي الماء يتراقص فوق النار، لذا أزاحت الغطاء قليلًا حتى يتسرب البخار من الداخل .

ثم بدأت «أوتاما» بعد ذلك إمعان الفكر في طريقتين لا ثالثة لهما وهي أن تخاطبه بنفسها مباشرة أو استخدام شخص آخر. وأثناء ذلك بدأ

الجو يبرد تدريجيًّا في المساء، وصار فتح النافذة أمرًا يصعب تحقيقه. وتنظيف الحديقة الذي كان مقررًا أن يحدث مرة واحدة فقط في الصباح، بعد ما حدث في ذلك اليوم، صارت «أوميه» تقوم به مرتين، صباحًا ومساءً، ولذا من الصعب عليها أن تمد يدها للتنظيف. ثم حاولت «أوتاما» تأخير وقت ذهابها للحمام العام، بغية لقاء «أوكادا» في منتصف الطريق، ولكن لأن الحمام العام الواقع أسفل المنحدر قريب للغاية، لم تستطع لقاءه. وكذلك كلما مرت الأيام صار استخدام شخص صعبًا .

فكرت «أوتاما» لبعض الوقت بالشكل التالي لتجبر نفسها على اليأس: «سأظل على هذه الحال بدون شكر «أوكادا». لو فكرنا أن الأمر لا يمر بدون قول كلمة شكر لـ«أوكادا»، فهذا يعني أنني سأظل مدينة بالجميل الذي صنعه من أجلي. ومن المفترض أنه يفهم أنني مدينة له بذلك الصنيع. وأن بقاء الوضع على ما هو عليه الآن أفضل من قول كلمة شكر بشكل متعجل وقاصر ».

ولذا أرادت «أوتاما» التقرب من «أوكادا» بأسرع وقت ممكن، وجعل هذا الجميل حجة لذلك. ولكنها غير قادرة على الحصول على وسيلة، فهي مع مرور الأيام تعاني معاناة شديدة لا يعرفها بشر .

*

ذاقت «أوتاما» قوية العزيمة الأمَرين خلال تلك الفترة القصيرة منذ أن

صارت محظية لـ«سويزو»، مما تعانيه المحظية من احتقار المحيطين بها في العلن، وحسدهم لها في الخفاء . ولكنها بفضل ذلك نشأت داخلها صفة استغباء المجتمع المحيط بها . وبسبب أصلها الطيب وعدم تأثرها بالمجتمع بعد، اعتقدت أن الاقتراب من مسكن الطلبة الذي يسكن فيه «أوكادا» سيكون أمرًا مزعجًا .

صار الأمر لا يختلف كثيراً عما كان قبل حادثة الثعبان، وانتهى الأمر بعد حدوثها، من دون أن تستطيع خلق علاقة قريبة ولو قليلًا. وكانت في تلك الأثناء تتبادل التحية مع «أوكادا» بانحناءة بسيطة من رأسها عندما يكون الجو خريفيًّا معتدلًا وتظل الشرفة مفتوحة، إلا أن العلاقة بينهما لم تتطور لأبعد من ذلك، على الرغم من أنها، وقت حادثة الثعبان، تحدثت إليه عن قرب وأعطته المنشفة يدًا بيد. وأحست «أوتاما» بالحنق والغضب إزاء ذلك .

حتى لو جاء «سويزو» تضع له مجمرة الحطب فيجلس قبالتها، وتفكر كيف كانت تشعر يا ترى لو كان «أوكادا» الذي يجلس قبالتها؟ في البداية عندما فكرت في ذلك، لامت نفسها بشدة على وقاحتها تلك، ولكن تدريجيًّا صارت لا تبالي أبدًا بالتفكير في «أوكادا» وهي تواكب الحديث كيفما اتفق مع «سويزو». ثم عندما تصير حرة منه تغمض عينيها وتفكر في «أوكادا». وأحيانًا ترى أحلامًا لها معه. يكونان معًا بدون أي ترتيب مرهق أو تنظيم مسبق. ثم في اللحظة التي تشعر فيها بالسعادة قائلة: «آه كم أنا سعيدة»، يتحول رفيقها في الحال من «أوكادا» إلى «سويزو». فتصيبها دهشة وتفتح عينيها مستيقظة، وبعد ذلك تكون

أعصابها مصابة بهياج فلا تستطيع النوم، وأحيانًا تبكي من الكرب .

جاء شهر نوفمبر في لمح البصر. واستمرت الأيام المشمسة، ولذا كان جعل النافذة مفتوحة طوال الوقت أمرًا لا يثير انتباه أحد، وبذلك استطاعت «أوتاما» رؤية وجه «أوكادا» بشكل يومي. أصيبت «أوتاما» بالاكتئاب لأن الأمطار الباردة قليلًا استمرت يومين أو ثلاثة أيام، ولم تستطع فيها رؤية وجه «أوكادا». ولكن لأنها ذات شخصية سوية تمامًا، فهي لا تقوم بإزعاج الخادمة «أوميه» بأي قول غير معقول أو طلب سخيف. بل وأكثر من ذلك لم تلقَ «سويزو» بوجه عابس مطلقًا. هي فقط في ذلك الوقت تضع مرفقها على حافة مجمرة الحطب، وتشرد في صمت، ولذا تسألها «أوميه »:

ـ هل تعانين من شيء يا سيدتي؟

ولكنها في تلك الأيام ترى وجه «أوكادا» بشكل مستمر، فهي قد صارت نشطة ومزاجها جيدًا، وفي صباح أحد الأيام، خرجت من البيت بشكل أكثر خفة من المعتاد، وذهبت لزيارة بيت والدها الواقع بجوار «حافة البركة ».

كانت «أوتاما» تحرص على زيارة والدها مرة كل أسبوع، ولكنها لا تمكث عنده في كل مرة أكثر من ساعة. والسبب هو أنه لا يسمح لها بذلك مطلقًا. في كل مرة تذهب إليه يعاملها والدها بلطف وحنان. وعندما يكون لديه شيء طيب المذاق، يخرجه لها ويسقيها الشاي

الأخضر. ولكن بعد الانتهاء من ذلك فقط، يقول لها على الفور :

ـ ارجعي لبيتك .

وليس ذلك بسبب ضيق خلق الرجل العجوز فقط. ولكن لأنه يعتقد أنه ما دام قد قدمها لخدمة الرجل، فهو يشعر أنه لا يجب عليه احتجازها عنده وقتًا طويلًا. وعندما جاءت «أوتاما» إلى بيت والدها في المرة الثانية أو الثالثة، قالت له إن سيدها من المستحيل أن يأتيها في وقت الصباح، ولذا فيمكن لها أن تجلس عنده وقتًا أطول وتستريح قليلًا. ولكن والدها لم يوافقها على ذلك، قائلًا لها :

ـ أنا معك ربما لم يسبق له المجيء في ذلك الوقت من قبل. ولكن أليس من الممكن أن يأتي في أي وقت مستقبلًا بسبب حاجة لديه؟ لا يجب عليك أن تغيبي عن البيت وقتًا طويلًا بحجة الذهاب إلى التبضع أو غيره، إلا في الحالات التي تخبرين سيدك بها ويسمح لك. لأنك إذا فعلت، وقتها سيكون لا حيلة لك إذا ظن السيد أنك تذهبين للهو هنا أو هناك .

كانت «أوتاما» دائمًا قلقة من أن يسمع والدها عن طبيعة عمل «سويزو» فيتعكر مزاجه بسبب ذلك، وتراقب حاله في كل مرة تزوره فيها، ولكن يبدو أن والدها ليس لديه أي علم بذلك. وهذا هو المفترض. فبعد أن انتقل والدها إلى «حافة البركة» وبعد مرور فترة بسيطة بدأ في قراءة الكتب المستعارة، وهو دائمًا يضع نظارته على عينيه ويقرأ تلك الكتب

التي تقتصر على الكتب المنسوخة بخط اليد مثل تسجيلات الأحداث والوقائع، والحوارات والذكريات. حاليًّا يقرأ كتاب «وقائع ميكاوا فودوكي». ولأن ذلك الكتاب مكون من عدد ضخم من الأجزاء، فهو يقول إنه سيستمتع لفترة طويلة به فقط. وعندما يعرض عليه صاحب محل الكتب المستعارة كتب الروايات والمسرحيات المخصصة للقراءة، يقول له :

ـ أكيد المكتوب فيها كله أكاذيب .

ولا يرضى حتى بأخذه بين يديه ليلقي عليه نظرة سريعة. وفي الليل يقول إن عينيه تكلَّان، فيعرض عن قراءة الكتب ويذهب إلى مسارح الأحاديث الكوميدية. ولكن عند ذهابه إلى تلك المسارح، لا يهتم هل الأحاديث الملقاة أكاذيب أم حقائق بل هو يسمع «الراكوجو» وأيضًا يسمع نوع «جيدايو». في الأغلب لا يذهب إلى مسارح «هيروكوجي» التي تقدم عروضًا عن المعارك الحربية، إلا في حالة مجيء متحدث يعجب به أشد الإعجاب. كان هذا هو الترفيه لديه فقط، ولم يكن لديه أصدقاء لأنه لا يقوم بالتحدث مع الناس فيما لا طائل من ورائه. ولهذا لا يتولد السبب الذي يعرفه بحقيقة «سويزو ».

ومع ذلك فيوجد من الجيران من بحث وتقصى عمن هي تلك المرأة الجميلة التي تزور ذلك العجوز المتقاعد في منزله هذا، وأخيراً ظهر منهم من عرف أنها محظية المرابي . لو كان جيرانه الموجودون على الجانبين من النوع الثرثار لوصلت إلى سمع العجوز رغمًا عنه تلك

الحقيقة الكريهة، ولكن من حسن الحظ، أن أحد جانبي منزل العجوز مبنى تابع لمتحف يوجد فيه رجل لا عمل له إلا التدريب على تقليد خطوط المشاهير ونقل كتب القدماء، ويعمل الجار الآخر بمهنة الطبع على الخشب التي أصبحت نادرة، وهو رجل لا يلمس إلا أخشاب النقش، فكلاهما لا خوف منهما، فقلباهما قلبا عجوزين لا يخاف من كسرهما حالة السلام والأمان. أيضًا في ذلك الوقت لم يكن يوجد في البيوت المصطفة على جانبي بيت الوالد محلات إلا مطعم «هاسوتاما»، ومحل لبيع حلوى المقرمشات اليابانية، ثم أخيراً محل «جوسان يا» لبيع الأمشاط الذي يقع قريبًا من طريق «هيروكوجي».

كان العجوز بمجرد أن يشعر بأن شخصًا يفتح البوابة الحديدية ويدخل، وبمجرد أن يسمع صوت القبقاب الخفيف، وحتى قبل أن يصدر ذلك الصوت الحنون، يعرف أن ابنته «أوتاما» قد جاءت، فيضع على الأرض كتاب «وقائع ميكاوا فودوكي» الذي توقف عن قراءته وينتظرها. ثم يخلع النظارة التي يضعها على عينيه، فاليوم الذي يرى فيه العجوز وجه ابنته الجميلة هو يوم عيد بالنسبة له. وعلى الرغم من أنه يرى أفضل لو ظل واضعًا نظارته، فإنه إذا جاءت ابنته يخلعها بشكل مؤكد، لعدم شعوره بالارتياح لأنه يحس بشكل ما أنه بوضعه النظارة يضع حاجزاً بينه وبينها. وتتراكم الأمور التي يريد التحدث عنها لابنته دائماً، ومع أنه يُبقي جزءًا منها لا يحكيه بسبب النسيان، إلا أنه لا ينتبه لذلك إلا بعد أن ترحل. ولكنه لا ينسى أن يسأل عن صحة «سويزو» وسلامته، قائلًا لها: «هل سيدك في مزاج جيد؟».

رأت «أوتاما» اليوم وجه والدها في صحة جيدة وفي مزاج حسن، وأسمعها حكاية «السيدة أتشا نو تسوبونه»، وأطعمها من الحلوى المقلية التي تبلغ القطعة المربعة منها ثلاثين سنتيمتراً، والتي اشتراها من محل على عربة جوالة في شارع «هيروكوجي» في منطقة «أوسنجي».
ثم من حين لآخر يسألها والدها :

ـ ألم يحن وقت العودة بعد؟

تقول وهي تضحك :

ـ ليس بعد .

أخيراً ظلت معه حتى قرب الظهيرة. ثم عندما حدثت والدها أن «سويزو» مؤخرًا يأتي أحيانًا في هذا التوقيت فجأة، زادت بدرجة كبيرة حدة حثه إياها على العودة السريعة. أحست بذلك داخل قلبها. في يوم ما ستصير جريئة مكشوفة الوجه، فلا تهتم بمسألة هل يأتي «سويزو» أثناء غيابها أم لا .

الفصل الحادي والعشرون

صار الجو تدريجيًّا يميل للبرودة، في بيت «أوتاما» يظهر الصقيع ناصع البياض في الصباح فقط فوق اللوح الخشبي المدفون تحت الأرضية مكان وطء الأقدام قبالة حوض المطبخ. أشفقت «أوتاما» على «أوميه» فاشترت لها قفازات، لأن الحبل الطويل الذي يستخدم في جلب المياه من البئر العميقة يكون باردًا، ولكن «أوميه» التي فكرت أن لبس القفازات ثم خلعها كل مرة لن يجعلها قادرة على أعمال المطبخ، احتفظت بعناية بها، وكما هو متوقع كانت تجلب الماء من البئر بيديها العاريتين. وحتى عندما تطلب منها «أوتاما» غسل الملابس، أو التنظيف بالخرقة، تجعلها تسخن الماء ثم تستخدمه، إلا أن يدي «أوميه» صارتا على وشك التقرح. تأثرت «أوتاما» من ذلك فقالت لها :

ـ ترك يديك مبتلتين كما هما بعد كل عمل تستخدمين فيه الماء غير جيد. إذا أخرجت يديك من الماء فيجب أن تمسحي الماء بسرعة وتتركيهما تجفان. وإذا انتهيت من العمل لا تنسي أن تغسلي يديك بالصابون .

واشترت صابونًا خصيصًا لها وأعطتها إياه. ومع ذلك فإن تواصُل تقرحات يدي «أوميه» كان يجعل «أوتاما» تحس بالشفقة تجاهها. ثم كانت تستعجب أنها كانت تفعل بنفسها ما تفعله «أوميه» الآن ولكن لم يحدث أن تقرحت يداها مثلها .

حتى «أوتاما» التي لا تحتمل البقاء في الفراش بعد أن تستيقظ في الصباح، صارت بلا وعي تلتف بالغطاء في فراشها عندما تقول لها «أوميه »:

ـ إن الحوض هذا الصباح لا يزال متجمدًا بالثلج، ارتاحي قليلًا .

يحذر علماء التربية الشباب من تفاقم الخيالات، قائلين لهم : «إذا دخلت الفراش يجب عليك أن تحرص على النوم فورًا، وإذا استيقظت عيناك يجب أن تغادر الفراش فورًا . لأنه إذا ترك الجسد الممتلئ بالحيوية والشباب في الفراش الساخن تنبت الأفكار والتصورات مثلما تتفتح زهور الأعشاب السامة في داخل النيران». وفي مثل ذلك الوقت تصير تخيلات «أوتاما» حرة تمامًا. يتولد وقتها داخل العين نوع من أنواع الأشعة الضوئية، ويتدفق لون أحمر وردي من جفنيها حتى خديها وكأنها ثملت من الخمر .

في أحد الأيام، كانت السماء في الليلة السابقة صافية، والنجوم تتلألأ، وقد نزل الصقيع في الفجر، حدث ما يلي : تكاسلت «أوتاما» ولمدة طويلة داخل الفراش، كما اعتادت مؤخرًا، وأخيراً نهضت بعد أن رأت أشعة الصباح تتسلل داخلة من النافذة الأمامية للبيت التي رفعت «أوميه» عنها السلك الحامي من المطر فاتحة إياها منذ وقت طويل مضى. ثم وضعت حزام «الكيمونو» الرفيع على المعطف النصفي الذي تضعه الأم التي تحمل طفلها على ظهرها، وخرجت إلى الحديقة وهي تستخدم خلة الأسنان. وبعدها سمعت صوت فتح البوابة الحديدية.

وصوت «أوميه» المرحب وهي تقول :

ـ تفضل بالدخول .

ثم صوت الأقدام التي تتابعت داخلة للبيت .

كان ذلك «سويزو» الذي بادرها بالقول :

ـ أهلًا. تأخرتِ في النوم .

ثم جلس أمام مجمرة الحطب .

ـ نعم. لك اعتذاري. ولكن أليس حضورك مبكرًا للغاية عن المعتاد؟

قالت «أوتاما» ذلك بعد أن أخرجت الخلة التي كانت تضعها بين أسنانها على عجل، وبصقت في الدلو اللعاب الذي كان في فمها، وبدا وجهها المبتسم ابتسامة ممدودة قليلًا، في عين «سويزو»، جميلًا عن أي وقت سبق. منذ أن انتقلت «أوتاما» للسكنى في «موئنزاكا» وهي تزداد جمالًا يومًا بعد يوم. في البداية كان يعجب بظرافتها الطفولية، ولكن تحول ذلك منذ فترة إلى سلوك ساحر نوعًا ما. مع رؤية «سويزو» لهذا التغير، اعتقد أن «أوتاما» صارت تفهم الحب، وشعر بالرضا عن نفسه أنه جعلها تفهمه. ولكن عينه الحادة التي تخترق الأمور وتكتشف جوانبها كانت، لسخرية القدر، تخطئ في معرفة الحالة النفسية لامرأة تحب. كانت «أوتاما» في البداية امرأة تعتني بسيدها الذي تخدمه،

ولكن التغير الطارئ الذي اعتراها جعلها تحمل قلبًا يشبه القلب الهادئ البارد الذي تناله كثير من سيدات المجتمع بعد تعاملهن مع الرجال قليلًا، وبعد أن يجربن معاناة العذاب، وإعادة التفكير في تجاربهن السابقة ليصلن في النهاية إلى اقتناع ذاتي يمكن تسميته «التهاون». يشعر «سويزو » بإثارة ممتعة عندما يتلاعب به ذلك القلب. ومع ذلك فإن «أوتاما» في الوقت نفسه الذي تصبح فيه متهاونة، تميل تدريجيًّا إلى الخلاعة قليلًا، قليلًا. ويُستحث «سويزو » إلى حرارة الرغبة بهذه الخلاعة، ويشعر أنه ينجذب بقوة إلى «أوتاما». لا يفهم «سويزو» هذه التغيرات مطلقًا. يتولد إحساس الانجذاب لها من هنا بالذات .

قالت «أوتاما» وهي تنحني جاذبة الطست المعدني نحوها :

ـ سيدي، هل يمكن أن تولِّي وجهك للناحية الأخرى؟

قال سويزو وهو يشعل النار في الغليون :

ـ لم؟

ـ لأنني أريد أن أغسل وجهي .

ـ وما الضرر؟ هيا اغسليه بسرعة .

ـ لا أستطيع غسله وأنت تنظر لي .

ـ شيء صعب. هاه، هل يرضيك هذا؟

ولَّى «سويزو» ظهره ناحية الحديقة، وهو ينفث دخان التبغ. وكان يفكر في داخله: «يا لها من امرأة ملائكية ».

غسلت «أوتاما» وجهها في عجلة من دون أن تخلع ملابسها بل فقط وسعت من فتحة الياقة. كانت متهاونة عن المعتاد لعدم وجود عيوب بها تستدعي الاستعانة بأسرار المكياج لتخفي جرحًا أو تتصنع جمالًا، لذا لم تكن لديها مشكلة أن يشاهدها أحد .

كان «سويزو» في البداية موليًا ظهره لها، لكن بعد برهة عدل وجهته نحو «أوتاما» التي كانت تغسل وجهها من دون أن تعلم بذلك، وبعد انتهائها من غسل وجهها وعندما جذبت مرآة الخزانة، رأت فيها وجه «سويزو» الممسك بورقة التبغ في فمه. فقالت :

ـ آه. يا لك من شخص بغيض !

ولكنها ظلت كما هي تمسح شعرها بيديها . تحت الياقة التي تم توسيعها أظهرت بشرتها البيضاء في شكل مثلث من العنق في اتجاه الظهر، ولأنها كانت ترفع يديها عاليًا، ظهر حوالي شبر من فوق المرفق، فبان زندها الممتلئ الذي كان بالنسبة لـ«سويزو» مشهدًا لا يمل أبدًا من النظر إليه. وهنا عندما ظل صامتًا منتظرًا، اعتقد أنها ربما تسرع في عملها ولو عنوة، فبدأ يتحدث بنبرة متأنية بطيئة متعمدًا :

ـ مهلًا لا داعي للعجلة، فلم آتِ في هذا الوقت المبكر من الصباح بسبب أمر معين. ففي الواقع كَما سألتني، وقلت إنني تقريبًا في هذه الليلة سأكون قد ذهبت وجئت، لقد تحتم عليَّ أن أذهب إلى «تشيبا» في أمر مهم. لو سارت الأمور كما ينبغي سأستطيع العودة غدًا، ولكن لو حدث شيء ربما أعود بعد غد .

«أوتاما»، التي كانت تمسح المشط، نظرت للخلف قائلة :

ـ حقًّا؟

وبدا على ملامحها ما يشبه القلق .

قال «سويزو» بنوع من المزاح :

ـ عليك بالانتظار في سكون ووداعة .

ثم أغلق علبة التبغ الملفوف. ونهض متوجهًا إلى باب البيت .

فقالت له «أوتاما» التي رمت المشط في علبته :

ـ أتغادر حتى قبل أن أقدم الشاي لك؟

ولكن عندما وقفت لكي تخرج في وداعه، كان «سويزو» قد فتح الباب الحديدي بالفعل .

*

كانت «أوميه» قد خرجت من المطبخ حاملة صينية الإفطار، فوضعتها أرضًا وقالت، واضعة يديها على الأرض كعلامة اعتذار :

ـ أعتذر بشدة .

ابتسمت لها «أوتاما»، وكانت جالسة بجوار مجمرة الحطب، تسقط الرماد الذي علا النار باستخدام لاقط الفحم، وقالت :

ـ ما الذي تعتذرين بسببه؟

ـ لقد تأخرت رغمًا عني في إعداد الشاي للسيد .

ـ آه، أهذا الأمر قصدت؟ لقد قلت ذلك لمجرد التحية فقط. فالسيد لم يكن في ذهنه شيء عندما أتى إلى هنا .

قالت «أوتاما» ذلك ثم أمسكت بعصوي الأكل .

عندما نظرت «أوميه» إلى وجه سيدتها تتناول الإفطار هذا الصباح، ومع أنها نادرًا ما تكون سيئة المزاج، وجدت أنها سعيدة بشكل خاص. ومنذ أن قالت ضاحكة قبل قليل : «ما الذي تعتذرين بسببه؟»، فظل الابتسامة التي حمرت الخدين قليلاً لم يغادر وجهها. ولم يخلُ الأمر من تفكير «أوميه» عن السبب في ذلك بعقلها، ولكن ذلك السؤال لم يُسقط

جذوره في رأس «أوميه» بريئة القلب للنهاية. بل حدثت لها فقط عدوى المزاج الجيد فأصبحت هي أيضًا سعيدة .

ظلت «أوتاما» تطيل النظر إلى وجه «أوميه» وقالت لها ما جعل مزاجها الجيد يزداد سعادة :

ـ ألا ترغبين في زيارة أهلك؟

فتحت «أوميه» عينيها على وسعهما من الشك والريبة. في ذلك الوقت بعد مرور ما يزيد قليلاً على عشر سنين من عصر «ميجي»، كانت البيوت في مدينة «إيدو» ما زالت تُحكم بقوة الدفع الذاتي للتقاليد والعادات القديمة، وكان من المقرر أن الخادمة التي تنتقل للخدمة من مدينة إلى أخرى لا تستطيع زيارة أهلها بسهولة إلا يومين أو ثلاثة أيام فقط من عطلة بداية العام الجديد .

تابعت «أوتاما» قولها :

ـ أعتقد أن السيد لن يأتي الليلة، فلو أردت الذهاب لبيت أهلك والمبيت هناك ثم العودة غدًا يمكنك ذلكَ .

ـ آ... آ... أتعنين ذلك حقًّا يا سيدتي؟

لم ترد «أوميه» بهذا السؤال بسبب الشك في كلام سيدتها. ولكن صدر منها هذا الكلام تعبيراً عن إحساسها بعظمة ذلك الجميل .

ـ ولمَ أكذب عليك؟ أنا لا أفعل ذلك الذنب العظيم من أجل السخرية منك. لا عليك من ترتيب أواني الطعام، يمكنك أن تذهبي في الحال. ويمكنك الاستمتاع باليوم كله ثم تعودين بعد أن تبيتي الليلة هناك. ولكن مقابل ذلك عليك العودة غدًا مبكرًا .

قالت «أوميه» وقد بلغ وجهها غاية الحمرة من السعادة :

ـ نعم سأفعل .

ثم تتابعت الصور داخل رأسها الصغير بسرعة شديدة كأنها عرض خيال الظل، صورة عربات أبيها، الذي يعمل عربجيًّا، تصطف على الأرض الطينية أمام بوابة البيت، وصورة الوسادة المربعة التي توضع بالكاد في المساحة ما بين الخزانة ومجمرة الحطب، وصورة أبيها يجلس فوقها عندما لا يكون لديه عمل، وصورة أمها تجلس فوقها وهي تنتظر وحيدة في البيت وقد تدلت إحدى خصلات شعرها على خدها، واضعة على كتفها صدرة عمل البيت التي من النادر أن تخلعها .

رفعت «أوميه» صينية الطعام بعد انتهاء الأكل. ورغم أنه قيل لها لا داعي لترتيب أواني الطعام بعد الأكل، فإنها قررت أن تغسل ما تستطيع غسله من الأواني، فوضعت الماء الساخن في الدلو الصغير، وبدأت تصدر أصوات غسلها للأكواب والصحون، عندها جاءتها «أوتاما» ممسكة بشيء مطوي ومغلف بالورق :

ـ ما هذا؟ كما توقعت تقومين بغسل الصحون. غسيل هذه الأشياء لا

معنى له، دعيها أنا سأكملها. أنت أمس قد صففت شعرك فيمكنك الذهاب كما أنت. أسرعي بتبديل ملابسك. وبعد َذلك خذي هذا معك لأنه لا يوجد شيء مناسب تأخذينه كهدية .

قالت «أوتاما» ذلك وأعطتها لفة الورق. كان داخلها الأوراق النقدية الزرقاء إياها ذات النصفين التي تأخذ شكل بطاقات لعبة «الكاروتا» اليابانية .

*

بعد أن سارعت «أوتاما» بإخراج «أوميه » من المنزل، دخلت المطبخ بنشوة الانتصار وهي ترتدي صدرة وتثني طرف «الكيمونو» المنزلي. ثم بدأت في غسل الأكواب والصحون التي كانت «أوميه» على وشك غسلها وكأنها تقوم بعمل ممتع. ذلك العمل الذي من المفروض أن «أوتاما» بما لها من خبرة سابقة ومهارة كبيرة، تستطيع أن تنهيه بسرعة ودقة متناهية لا تستطيع «أوميه» أن تصل إليها مطلقًا مهما خططت، إلا أنها اليوم كانت تفعله بشيء من التهاون كما لو أنها طفل يستمتع بألعابه. لا تترك الصحن الذي تغسله لمدة خمس دقائق كاملة. وبعد ذلك تألق وجهها بلون وردي مليء بالنشاط والحيوية، وعيناها تحملقان في الفراغ .

كانت صور تفاؤلية تذهب وتجيء في رأسها. إن المرأة في الأغلب ورغم أنها تظل مترددة وحائرة في اتخاذ القرار لدرجة تجعلك تعطف

عليها، فإنها عندما تأخذه بالفعل، فهي لا تفعل مثلما يفعل الرجال من تردد وحيرة، ولكن تندفع في اتجاه الهدف وكأنها فرس مغمى العينين. حتى لو كان يسد الطريق أمامها عوائق تجعل الرجل الحصيف يقف ويخالط قلبه الحذر والخوف، إلا أن المرأة لا تعير تلك العوائق بالًا. وعندها ماذا تفعل؟ تفعل المرأة عمدًا ما يحاول الرجل ألا يفعله عمدًا، وفي النهاية تصيب النجاح على عكس المتوقع. محاولة «أوتاما» الاقتراب من «أوكادا» لو نظر إليها طرف ثالث لدرجة عدم احتماله على فراغ صبره، لكان وقع في حيرة وتردد، ولكن بعد أن استأذن «سويزو» في هذا الصباح للذهاب إلى «تشيبا» ثم رحل، وكأنها مركب قد انتفخ قلعها بالرياح المواتية، تحس أنها تجري سريعًا في اتجاه الساحل الذي اتخذته هدفًا. ولذا قامت باستعجال «أوميه»، وجعلتها تعود لزيارة بيت أهلها. وذهب «سويزو» الذي يمكن أن يكون عائقًا لها إلى «تشيبا» ويبيت ليلته هناك. وعادت الخادمة إلى بيت أهلها وستبيت هناك. أولًا كانت «أوتاما» تشعر بمتعة لا حد لها أنها منذ الآن وحتى صباح الغد حرة الجسد والإرادة ولن يعوقها عائق. ثم جعلها سير الأمور بهذه الطريقة مرة بعد أخرى بلا مشاكل، تفكر أنها بوادر لا بد لها أن تصل بعدها إلى هدفها الأخير بسهولة. وبالتأكيد لا يمكن أن يقرر «أوكادا» عدم المرور اليوم من أمام بيتها. فهو في بعض الأيام يمر مرتين ذهابًا وإيابًا، فحتى لو حدث أنها لم تستطع ملاقاته مرة، فمن المستحيل أن تفلت منها فرصة لقائه في المرة الثانية. ولا بد لها أن تتحدث إليه اليوم مهما قدمت من تضحيات. إذا تحدثت إليه فليس من المفترض لرجل مثله ألا يقف ويرد عليها: «لقد سقطت في وحل أن صرت محظية وضيعة، بل صرت محظية مرابٍ. ولكني حتى لو لم أصبح أكثر جمالًا

مما كنت عليه قبل ذلك، فأنا لم أصبح أكثر قبحًا. وسبب إعجابي بـ«أوكادا»، هو أنني صرت أفهم بالتدريج أنه قطرة السعادة في وسط بحر التعاسة والشقاء الغارقة فيه. لو نظرنا للأمر فمن المستحيل أن يعتقد «أوكادا» أنني امرأة بغيضة. لا بشكل مطلق. بالتأكيد لا يمكن حدوث ذلك. فلو كان يعتقد أنني امرأة كريهة، فليس من المفترض أبدًا أن يلقي عليَّ التحية في كل مرة تتلاقى أعيننا. والأمر نفسه عندما قتل الثعبان من أجلي. فليس الأمر من النوع الذي لو حدث في أي بيت من البيوت، يُقدم المرء على مساعدة أهل البيت بهذه الطريقة. لو لم يكن بيتي لربما مر «أوكادا» مرور الكرام بوجه غير مبال. وعلاوة على ذلك، ولأنني أفكر فيه إلى هذه الدرجة فليس من المعقول ألا يحس بذلك، حتى لو لم يكن على علم بكل ما بقلبي ولكن على الأقل ليس من المفترض ألا يصله بشكل أو بآخر ذلك الشعور. ماذا؟ فربما يكون الفعل أسهل من التفكير». أثناء مواصلة التفكير في هذا الأمر، برد تمامًا الماء الساخن في الإناء الصغير، لكن «أوتاما» ظلت غير شاعرة ببرودة الماء .

وضعت «أوتاما» الأواني في أرففها ثم عادت إلى مجمرة الحطب وجلست، كانت تبدو في حالة قلق وعدم ارتياح بسبب إحساسها بشيء من التململ والضجر. فأخذت تقلب رماد مجمرة الحطب الذي أحسنت «أوميه» غربلته في الصباح مرتين أو ثلاثًا، فجأة وقفت وبدأت في تغيير ملابسها. قررت الذهاب إلى المرأة التي تصفف الشعر في حي «دوبوتشو». وهي امرأة صالحة تأتي لمنزلها عادة وقد أعلمتها مرة عنوان بيتها وتركته لها قائلة: «تعالي عندما تكونين في طريقك لمكان

آخر ».

ولكن مع ذلك لم تذهب إلى منزلها من قبل قط .

الفصل الثاني والعشرون

في كتب قصص الأطفال الغربية قصة تسمى «مسمار واحد». أنا لا أتذكرها جيدًا، ولكنها تحكي أن أحد أبناء المزارعين يُلاقي متاعب متنوعة بسبب خروجه راكبًا عربة سقط من عجلاتها أحد المسامير. في هذه القصة التي أحكيها، تفعل وجبة سمك الإسقمري بصوص «الميسو» بالضبط تأثير المسمار نفسه .

عندما كنت أجعل «وجبة» بيت الطلبة ووجبة الجامعة مجرد سبب لتلافي الموت جوعًا، كانت هناك وجبة أكرهها لدرجة أن جلدي يقشعر بمجرد رؤيتها. مهما كان المطعم طيب المكان به منفذ لنسائم محببة، ومهما قدم لي فوق صينية نظيفة وراقية، أول ما تلمح عيناي ذلك الطبق لمرة يستنشق أنفي الرائحة الكريهة للمطبخ في مسكن الطلبة والتي يصعب وصفها. وعندما تأتي مع تلك الوجبة مقبلات مسلوقة مثل أعشاب البحر السوداء المسماة «هيجيكي»، ونخالة «ساجارا»، على الفور تحدث لي حالة هذيان وهلوسة بصرية بسبب تلك الروائح الكريهة. وإذا وصل الأمر إلى سمك الإسقمري بصوص «الميسو» تصل الحالة إلى أوجها .

وبهذا الشكل في أحد الأيام جاءت وجبة سمك الإسقمري بصوص «الميسو» فوق صينية العشاء في «مسكن كاميجو». ولأنني دائمًا أمسك عصوي الأكل بمجرد وضع الصينية أمامي، لذا عندما ترددت لحظات نظرت لي عاملة المطعم وقالت :

ـ هل تكره سمك الإسقمري؟

ـ لا أكره الإسقمري بعينه. لو كان مشويًّا فأنا آكل منه كثيراً، ولكن عندما يكون مسلوقًا مع صوص «الميسو» أفقد شهيتي .

قالت العاملة وهي على وشك الوقوف :

ـ صاحبة المنزل لا تعلم ذلك. إذا كان الأمر كذلك هل أحضر لك شيئًا آخر، بيضًا أو ما شابه؟

قلت لها :

ـ انتظري! في الواقع لست جائعًا الآن. فسأذهب لنزهة وأعود. قولي لمالكة المنزل ما يناسب الموقف، فمن الأفضل ألا نجعلها تقلق بغير داعٍ .

ـ ولكنني هكذا سأشعر بالأسى عليك نوعًا ما .

ـ لا تكوني غبية يا امرأة .

ولأنني قمت بالوقوف وكنت على وشك ارتداء زي «الهاكاما » ، خرجت العاملة إلى الممر حاملة معها صينية الطعام. تحدثت إلى الغرفة المجاورة لغرفتي :

ـ «أوكادا»! هل أنت بالغرفة؟

أجاب «أوكادا» على ندائي بصوت واضح قائلًا :

ـ نعم. هل تريد شيئًا؟

ـ لا أريد شيئًا. ولكنني كنت أنوي الخروج في نزهة ثم المرور على مطعم «تويوكونيا» في طريق العودة . ألا تأتي معي؟

ـ لنذهب معًا. لأنني أريد أن أحدثك في أمر ما .

تناولت القبعة التي كنت أعلقها على مسمار في الجدار ووضعتها على رأسي وغادرنا أنا و«أوكادا» «مسكن كاميجو». وأظن أن الساعة وقتها كانت قد تخطت الرابعة والنصف بقليل. خرجنا من بوابة «مسكن كاميجو» من دون حتى التشاور حول المكان الذي سنذهب إليه، ثم انعطفنا إلى اليمين بعد خروجنا من البوابة .

وعندما كنا على وشك الهبوط من منحدر «موئنزاكا»، لكزت «أوكادا» بمرفقي وقلت له :

ـ انظر! إنها هناك .

قال «أوكادا »:

ـ من تعني؟

ولأنه كان يفهم معنى كلامي فقد نظر إلى البيت الذي على الجانب الأيسر الذي به البوابة ذات الأسلاك .

وقفت «أوتاما» قبالة البيت. كانت امرأة جميلة حتى وهي ضعيفة البنية. ولكن كما هي العادة في امرأة شابة جميلة وفي كامل صحتها، كانت قد وضعت مساحيق على وجهها. في عيني أنا، كانت تختلف بشكل ما عما رأيتها دائماً، لا أعرف أين هو هذا الاختلاف، ولكنها كانت جميلة جمالاً يختلف عن المعتاد. وبسبب تلألؤ وجه المرأة المشرق فقد أحسست بنوع من أنواع الانبهار .

كانت عينا «أوتاما» تملؤهما النشوة وهما تحدقان النظر إلى «أوكادا». ولكن «أوكادا» وكأنه قد اضطرب حاله، أمسك قبعته بيده لتحيتها، ودون وعي أسرع من خطوات قدمه .

أما أنا فقد كنت أنظر من وقت لآخر إلى الخلف بالوقاحة التي يغلب وجودها على الطرف الثالث، فكانت «أوتاما» مستمرة في النظر بأهمية لفترة طويلة للغاية .

أصبح «أوكادا» يميل إلى النظر إلى أسفل، وأخذ يهبط المنحدر من دون أن يخفف من سرعة خطواته. هبطتُ معه وأنا صامت. كانت أنواع متعددة من المشاعر تتصارع داخل صدري. وكانت خلاصتها أنني كنت أتمنى أن أكون أنا في موقف «أوكادا». ولكن وعيي كان يكره

الاعتراف بتلك المشاعر. كان قلبي يصرخ داخلي بالقول: «ماذا؟ هل أنا رجل بهذا الحقارة؟»، محاولاً إزالة تلك المشاعر . وجعلني عدم النجاح في منع ذلك الشعور أغلي من الغضب . فلم تكن رغبتي في أن أكون في موضع «أوكادا» سببها رغبتي في أن أصير رهن إشارة لإغراء تلك المرأة. ولكن فقط مجرد أنه لا يزيد على شعوري أنه من المؤكد سيكون ممتعًا لو كنت أنا «أوكادا» وتحبني مثل تلك المرأة الجميلة. ولكن إذا كان الأمر كذلك لو أُحببت ماذا ستكون الحال؟ أنا في هذه الحالة سأفضل أن أحتفظ بحرية إرادتي كما هي. ولكنني لن أهرب مثلما يفعل «أوكادا ». أنا سأقابلها وأتحدث إليها. لن أجعل ساحتي تتسخ بأي شيء يشينها ولكن أقابلها وأتحدث إليها فقط. ثم أحبها كما لو كانت أختي الصغرى. وأكون عونًا لها. أنقذها من داخل الوحل الذي ترزح فيه. كانت تخيلاتي قد وصلت إلى هذه الدرجة التي ليست لها نهاية .

مشينا أنا و«أوكادا» في صمت حتى وصلنا إلى تقاطع الطريق أسفل المنحدر. وعندما كنا على وشك المرور قبالة نقطة الشرطة في خط مستقيم، استطعت أخيراً أن أنطق شيئًا ما فقلت :

ـ مهلاً، ألم يصل الأمر إلى حالة عظيمة؟

ـ هاه؟ ماذا تعني؟

ـ ليس الأمر كما تقول إنه لا شيء البتة. أنت نفسك لا شك أنك كنت

تفكر في أمر تلك المرأة طوال مشيك. لقد نظرت أنا مرة بعد مرة للخلف، فكانت المرأة تنظر إلى ظهرك حتى النهاية. وعلى الأرجح ما زالت حتى الآن واقفة في مكانها تنظر في هذا الاتجاه. إن الأمر كما تم وصفه في كتاب «سادن» المشهور: «عيناه تستقبلانها في المجيء وتودعانها في الرحيل». ولكن الوضع هنا معكوس والمرأة هي الفاعل .

ـ أرجوك أن تمتنع عن الخوض في هذا الحديث. لقد تحدثت إليك وحدك في هذا الأمر بجميع جوانبه، فهلَّا رحمتني من مناكدتك لي أكثر من ذلك؟

وأثناء حديثنا هذا، كنا قد وصلنا إلى «حافة البركة» فتوقفت أقدامنا معًا عن السير .

أشار «أوكادا» بيده إلى الجهة الشمالية من البركة وقال :

ـ دعنا نذهب في هذا الاتجاه .

قلت له :

ـ لنفعل .

ثم انعطفت ناحية اليسار محاذيًا للبركة. وبعد أن مشيت حوالي عشر خطوات فقط، نظرت إلى البيت ذي الطابقين القابع على يساري، وقلت وكأنني أتحدث إلى نفسي :

ـ هذا هو قصر البروفيسور «فوكوتشي»، وذاك بيت «سويزو ».

فقال «أوكادا »:

ـ بينهما تناقض غريب، ألا ترى أن يقال إن المبجل «فوكوتشي» أيضًا ليس على هذه الدرجة من الاستقامة؟

قلت شيئًا يقترب من التفنيد لهذه المزاعم، وأنا لا أفكر في شيء محدد :

ـ طبعًا عندما يصبح المرء سياسيًّا، فسيوجَّه له النقد مهما فعل .

على الأرجح أنني كنت أفكر في جعل المسافة بين السيد «فوكوتشي» و«سويزو» بعيدة بقدر المستطاع .

من حافة ألواح الأسلاك لقصر «فوكوتشي» وناحية الشمال، وُضع على ثاني أو ثالث بيت صغير مؤخرًا لافتة عليها اسم «سمك نهري». قلت وأنا أنظر إلى اللافتة :

ـ كنت أنظر إلى تلك اللافتة، يبدو لي أنهم بشكل ما يطعمون الزبائن من أسماك بركة «شينوبازو» الصغيرة .

ـ وأنا كذلك فكرت في الشيء نفسه. ولكن لا يمكن أن نفترض أن الأدعياء يمكنهم أن يفتتحوا مطعمًا هنا .

أثناء حديثنا هذا، عبرنا الجسر الصغير الذي يؤدي إلى شمال البركة. وهناك كان يوجد شخص يبدو عليه أنه أحد الطلبة يقف فوق الضفة ينظر إلى شيء ما. وعندما رآنا نحن الاثنين نقترب منه وجَّه إلينا الحديث قائلًا :

ـ أهلًا .

كان طالبًا يُسمى «إيشيهارا»، لديه شغف شديد برياضات الدفاع عن النفس مثل الجودو وغيرها، ولا يقرأ كتابًا واحدًا خارج المقررات الدراسية، فلذا لم أكن لا أنا ولا «أوكادا » على علاقة قوية به، ولكن مع ذلك فلم نكن نضمر تجاهه أية كراهية .

سألته :

ـ ماذا كنت تشاهد وأنت تقف فوق ذلك المكان؟

صمت «إيشيهارا» وأشار بيده إلى البركة .

نظرنا أنا و«أوكادا» وسط هواء وقت الغروب المعكر بلون رمادي في الاتجاه الذي تشير إليه يد «إيشيهارا». في ذلك الوقت كان نبات الغاب يملأ المكان بأكمله، من الأخدود الصغير المطل على حي «نيزو» وصولًا إلى الحافة التي يقف عليها ثلاثتنا الآن. وأوراق هذا الغاب الذابلة تصبح متناثرة كلما اقتربت من مركز البركة، وتتراص أوراق قديمة وجافة من نبات اللوتس، تبدو كأنها مثل الإسفنج، وتنكسر

سيقان الأوراق وأعواد النبات بارتفاعات مختلفة، لتبدو سامقة بزوايا حادة للغاية، فتعطي للمنظر الطبيعي نوعًا من الكآبة. كانت حوالي عشر إوز برية تذهب وتجيء بين فراغات تلك السيقان التي تشبه الأسفلت في لونها فوق سطح الماء الذي أصبح مسودًّا غامقًا بالإضافة إلى كونه يعكس انعكاسات معتمة. وبينها إوزة ساكنة لا تتحرك قيد أنملة .

قال «إيشيهارا» وهو ينظر إلى وجه «أوكادا »:

ـ هل تصل الأحجار إليها يا ترى؟

رد «أوكادا» قائلًا :

ـ مسألة الوصول مفروغ منها، المسألة هي هل ستصيبها أم لا؟

ـ جرب وافعل .

تردد «أوكادا» قليلًا :

ـ إنها على وشك النوم. أليس كذلك؟ أشفق عليها من الرمي بالأحجار .

ضحك «إيشيهارا» وقال :

ـ إن المعرفة الزائدة عن الحد لآلام الحيوانات أمر مرهق. إن لم تقذفها أنت بالحجر سأقذفها أنا .

قذف «أوكادا» بحجر في تكاسل قائلًا :

ـ إذا كان الأمر كذلك فسأجعلها تهرب .

طار الحجر وهو يصدر صوت صدى خافتًا. ظللت أنا أتابع باهتمام مصيره، إلى أن كسر رقبة إحدى الإوز البرية التي كانت تثنيها في الماء. وفي الوقت نفسه رفرفت باقي الإوز بأجنحتها وهي تصيح رعبًا وتناثرت منزلقة على سطح الماء. ولكنها لم تغادر المكان بالطيران. الإوزة التي انكسرت رقبتها ظلت في مكانها بلا أي حراك. صاح «إيشيهارا »:

ـ أصبتها .

ثم ظل لفترة يراقب سطح البركة وبعدها واصل كلامه قائلًا :

ـ سأجلب هذه الإوزة من الماء وعندها أرجو منكما مساعدتي .

سأله «أوكادا »:

ـ لماذا ستأخذها؟

جعلت بدون قصد أذني مصغية .

قال «إيشيهارا»:

ـ أولًا الوقت الآن غير مناسب. بعد نصف ساعة سيحل الظلام. بمجرد حلول الظلام سأريكما كيف أحضرها بدون عناء. ما يجب عليكما فعله هو مساعدتي فقط. وقتها سنلتقي معًا. أرجو منكما تنفيذ ما أطلبه. سنأكل جميعًا تلك الإوزة .

قال «أوكادا»:

ـ هذا أمر مسلٍّ .

وأضاف :

ـ ولكن ماذا سنفعل حتى مرور نصف الساعة تلك؟

ـ سأظل أنا في هذا المكان أراقبه. عليكما بالذهاب إلى مكان ما ثم العودة إلى هنا ثانية. فوجودنا نحن الثلاثة سيكون لافتًا للأنظار .

عندها قلت أنا لـ«أوكادا»:

ـ حسنًا إذا كان الأمر كذلك، ما رأيك أن نقوم نحن الاثنين بالدوران دورة حول البركة؟

قال «أوكادا»:

ـ حسن جدًّا .

ثم بدأ في المشي فورًا .

الفصل الثالث والعشرون

ذهبنا معًا أنا و«أوكادا» في اتجاه الدرجات الصخرية لمعبد «توشو» الشنتوي بعد أن قطعنا بالعرض طرف حي «هاناسونوتشو». انقطع الكلام بيننا لفترة من الوقت. ثم قال «أوكادا» وكأنه يحدث نفسه :

ـ يوجد بالقطع إوز بري تعيس .

طرأت على مخيلتي صورة امرأة منحدر «موئنزاكا» من دون أي رابط عقلاني بذلك. وعندها وجه «أوكادا» حديثه لي قائلًا :

ـ لقد رميت الحجر فقط ناحية المكان الذي يوجد به الإوز .

قلت له وأنا كما أنا أفكر في أمر المرأة :

ـ حقًّا؟

وبعد أن توقفت عن السير لوهلة قلت له :

ـ ولكني أريد أن أشاهد «إيشيهارا» وهو يذهب لالتقاطها .

هذه المرة «أوكادا » هو الذي رد بكلمة :

ـ حقًّا !

وكان يسير وهو على ما يبدو يفكر في أمر ما. على الأرجح الإوزة البرية هي التي كانت تشغل باله .

بعد أن انتهينا نحن الاثنين من درجات السلم الحجرية ودُرنا جنوبًا باتجاه المعبد كان موت الإوزة يلقي بظلال قاتمة على قلبينا، فكانت كلماتنا تميل إلى أن تصبح متقطعة بين فينة وأخرى. وعندما مررنا أمام بوابة المعبد الخشبية، كان «أوكادا» على ما يبدو يحاول قسرًا تغيير دفة الحديث إلى اتجاه آخر، فبدأ بالقول :

ـ كان لديَّ ما أريد أن أحدثك عنه .

ثم أسمعني ما لم يخطر على بالي قط .

كان الحديث كما يلي. كان «أوكادا» على وشك المجيء إلى غرفتي ليفاتحني في الحدث فسبقته بأن عرضت عليه الخروج للتنزه، فخرجنا معًا. وبعد أن خرجنا فكر في الحديث إليَّ وقت تناولنا طعام العشاء، ولكن على الأرجح بدا أن هذا الأمر الآن صعب. ولذا قرر أن يعلمني بمقتطفات من الموضوع أثناء سيرنا. لقد قرر السفر إلى الغرب من دون انتظار تخرجه في الجامعة، وحصل بالفعل على جواز السفر من وزارة الخارجية، وقدم بالفعل للجامعة طلبًا لترك الدراسة. وسبب ذلك أن البروفيسور الألماني «ويي» الذي جاء إلى اليابان لدراسة الأمراض المرتبطة بالبيئة والعادات في الشرق، قد وظفه عنده مقابل مرتب شهري قدره مائتا مارك، وأربعة آلاف مارك تكلفة السفر ذهابًا وإيابًا. لقد عرفه

البروفيسور «بيلتز» على «أوكادا» بعد أن طلب منه أن يعرفه على طالب يتحدث الألمانية ويقرأ الرموز الصينية في سهولة ويسر. زار «أوكادا» السيد «ويي» في منطقة «تسوكيجي» وخضع هناك للاختبار. وطُلب منه في الاختبار ترجمة سطرين أو ثلاثة لكل من كتاب «سومون» وكتاب «نانكيو»، وخمسة أو ستة أسطر من كل من قاموس «شانجانلون»، وكتاب «بيوجنكيلون». وللأسف كان كتاب «نانكيو» يتضمن كلمة «سانجياو»، وبعد أن احتار قليلاً في كيفية ترجمة ذلك، تخلص في النهاية منها بأن وضع لها نطق «تشاو »(********). وعلى كل حال فقد نجح في الاختبار، وعلى الفور تم التعاقد معه. ولأن السيد «ويي» هو بروفيسور في جامعة «لايبزيج» التي ينتمي إليها حاليًّا البروفيسور «بيلتز»، لذا سيرافقه «أوكادا» إلى «لايبزيج» وسيخوض اختبار الطب على يد السيد «ويي» نفسه. وقال إنه يمكنه استخدام ترجمته لكتب الطب الشرقية التي سيقوم بها لصالح السيد «ويي» على سبيل بحث تخرج. سيترك «أوكادا» «مسكن كاميجو» غدًا، وسينتقل للسكن في منطقة «تسوكيجي» مع السيد «ويي»، ويساعده في تجهيز الكتب التي اشتراها وجمعها من الصين واليابان. وبعد ذلك سيرافقه في رحلته التفقدية إلى إقليم «كيوشو» ويركبان سفينة شركة الشحن البحري الفرنسية مباشرة من «كيوشو ».

كنت أسمع تلك القصة وأنا أسير بتؤدة وعلى مهل، فأتوقف عن السير قائلاً: «عجيب!»، أو : «أنت جريء في اتخاذ القرار». ولكن بعد أن سمعتها للنهاية ونظرت لساعتي لم يكن الوقت الذي فات يتخطى عشر الدقائق منذ أن افترقنا عن «إيشيهارا». علاوة على ذلك كنا بالفعل قد

تخطينا حوالي ثلثي المسافة التي تحيط بالبركة، وبدأنا في البعد عن طرف البركة خلف حي «ناكاتشو».

قلت :

ـ لو واصلنا السير بهذا الشكل فسنصل أسرع من المطلوب .

فقال «أوكادا» مقترحًا :

ـ ما رأيك في أن نذهب إلى مطعم «هاسوتاما» ونتناول طبقًا من معكرونة «السوبا»؟

وافقته على الفور، فرجعنا معًا للمطعم. في ذلك الوقت كان «هاسوتاما» أكثر مطاعم «السوبا» شهرة في المنطقة ما بين «شيمويا» ومنطقة «هونجو».

قال «أوكادا» وهو يتناول «السوبا»:

ـ حزين لعدم تخرجي على الرغم مما بذلته حتى الآن من جهد، ولكن لأنه من المؤكد عدم اختياري مبتعثًا على نفقة الدولة، فلو فقدت هذه الفرصة، لن يمكنني رؤية أوروبا للأبد .

ـ الأمر كذلك بالفعل. لا تفلت هذه الفرصة من يديك. ماذا يعني التخرج؟ لو أصبحت هناك طبيبًا، فلن يكون هناك فارق، وحتى لو لم

تمارس الطب هناك، فلن يكون ذلك سببًا لأي ندم .

ـ أنا أيضًا أعتقد ذلك. ولكن الغرض هو الحصول فقط على رخصة الطب. وسأفعل ذلك لفترة مستجيبًا لعادات المجتمع .

ـ ماذا عن استعدادات السفر؟ على ما يبدو سيكون الرحيل في غاية العجلة .

ـ ماذا؟ بل سأذهب كما أنا بهذه الحال. فكما يقول السيد «ويي» حتى لو صنعت ملابس غربية في اليابان، فلن أستطيع ارتداءها هناك .

ـ تُرى هل هذا صحيح؟ لقد قرأت ذلك في وقت سابق في مجلة «كاجتسو» أن الكاتب «ريوهوكو ناروشيما»، فجأة خطرت على باله الفكرة في «يوكوهاما» فمن فوره ركب السفينة وسافر .

ـ حقًّا لقد فعل ذلك، فأنا أيضًا قرأت تلك المجلة. ولقد سافر «ريوهوكو» على ما يبدو حتى من دون أن يرسل رسالة إلى أهله، ولكني أبلغت الأمر بالتفصيل لأسرتي .

ـ حقًّا؟ يا لحسن حظك. لأنك سترحل بصحبة السيد «ويي» فلا خوف عليك من اضطراب أو حيرة مفاجئة. تُرى ما هو طعم السفر؟ لا يمكنني مجرد تخيل الأمر .

ـ أنا أيضًا لا أعلم عنه شيئًا، ولكني قابلت أمس البروفيسور «شوكيه

شيباتا»، ولأنه كان يعتني بي كثيراً، فعندما حدثته عن الأمر أعطاني دليل السفر إلى الغرب الذي قام بكتابته بنفسه .

ـ هاه. هل يوجد مثل هذا الكتاب؟

ـ أجل. ولكنه غير متاح للبيع. كما سمعت يتم توزيعه فقط على الوافدين الجدد .

أثناء حديثنا هذا نظرت إلى الساعة فوجدت أنه لم يبقَ على موعدنا المقرر بعد مرور نصف ساعة إلا خمس دقائق فقط، فأسرعت أنا و«أوكادا» في الخروج من مطعم «هاسوتاما»، وذهبنا إلى حيث ينتظرنا «إيشيهارا». وصلنا في الوقت الذي غرقت فيه البركة في ظلام دامس، ولا يُرى إلا ألوان معبد «بنتن» الحمراء متخفية داخل ضباب غائم .

على الفور أخذنا «إيشيهارا» الذي كان ينتظرنا، أنا و«أوكادا»، إلى «حافة البركة» قائلًا لنا :

ـ لقد وصلتما في الوقت المناسب تمامًا. لقد عادت الإوز الحية كلها إلى «أوكارها». سأبدأ على الفور بعمل ما يجب عليَّ عمله. أما أنتما فيجب عليكما البقاء هنا وإعطائي الإرشادات والتنبيهات اللازمة. انظرا، على بعد حوالي خمسة أمتار ونصف المتر أمامنا، توجد ساق منحنية لنبات اللوتس ناحية اليمين، وعلى امتداد الخط نفسه توجد ساق أخرى أقل ارتفاعًا منحنية ناحية اليسار. يجب عليَّ التقدم للأمام على امتداد ذلك الخط نفسه. وهنا إذا بدا أنني على وشك الانحراف

عن ذلك الخط المستقيم، يجب عليكما عندئذ أن تصححا لي الطريق بالقول إما يمينًا أو يسارًا .

رد «أوكادا» قائلًا :

ـ فهمت جيدًا. تقصد منطق الاختلاف الظاهري. ولكن أليس هناك خوف من أن تكون البركة عميقة للغاية؟

ـ ماذا؟ لا أعتقد أنها أعمق من طولي .

قال «إيشيهارا» ذلك وعلى الفور خلع ملابسه وأصبح عاريًا .

عند النظر إلى المكان الذي داس عليه «إيشيهارا » ، لا يصل الوحل إلا لما فوق الركبة بقليل. فأخذ يطأ بقدمه بعد أن يرفعها مثل طائر «البلشون»، وسار خطوة إثر خطوة. وعندما اعتقدنا أن البركة بدأت في العمق قليلًا، سرعان ما صارت ضحلة مرة أخرى. وفي لمح البصر كان «إيشيهارا» قد تخطى ساقي اللوتس. بعد برهة قال «أوكادا »:

ـ يمين .

اتجه «إيشيهارا» ناحية اليمين وواصل السير. فقال «أوكادا» مرة أخرى :

ـ يسار .

لأن «إيشيهارا» اتجه ناحية اليمين أكثر من اللازم .

على الفور توقف «إيشيهارا» عن السير ومال بجسده. وبعد ذلك مباشرة عاد إلى ما كان عليه. وفي الوقت الذي تخطى فيه ساق نبات اللوتس البعيد، كان يمكن لنا رؤية الصيد الثمين وهو يتدلى من يده اليمنى .

وصل «إيشيهارا» إلى ضفة البركة ولم يتسخ من جسده بالوحل إلا نصف فخذه فقط. كان الصيد عبارة عن إوزة برية بحجم كبير لم نتخيله. غسل «إيشيهارا» ساقيه سريعًا ثم ارتدى ملابسه. في ذلك الوقت كان عدد المارة في الغالب قليلاً، فلم يمر حتى شخص واحد من أمامنا منذ دخل «إيشيهارا» البركة وحتى خروجه منها مرة أخرى .

وعندما قلت :

ـ كيف سنحملها؟

رد «إيشيهارا» أثناء ارتدائه سروال «الهاكاما »:

ـ معطف «أوكادا» هو الأكبر بيننا. عليه أن يحملها لنا مخبئًا إياها داخل معطفه. وأما عن الطهي، فسأجعل مالكة المسكن الذي أقيم به تقوم بالطهي .

كان «إيشيهارا» يستأجر غرفة في بيت غير محترف . لم تكن زوجة صاحب البيت إنسانة جيدة وهذا هو المشهور عنها، ولكن لو تقاسمنا

الصيد معها، يمكننا على نحو ما إغلاق فمها. ذلك المنزل يقع في عمق ملتو من ركن حارة خلف قصر «إيواساكي»، بعد اختراق حي «يوشّيما». شرح «إيشيهارا» لنا باختصار طريق أخذ تلك الإوزة البرية إلى هناك. أولاً ثمة طريقان يؤديان إلى مسكن «إيشيهارا» من هنا. الطريق الذي يصل إلى منحدر «كيريتوشي» من الجنوب، والطريق الذي يصل إلى «موئنزاكا» من الشمال. وهما الطريقان اللذان يرسمان دائرة يكون مركزها قصر «إيواساكي». وفارق المسافة بينهما ضئيل. وفي حالتنا هذه لا مجال للتساؤل عن فرق المسافة، سيكون العائق أمامنا فقط هو نقطة الشرطة. ولكن توجد واحدة في كلا الطريقين. بمقارنة أضرار كل منهما، وصلنا إلى اختيار تلافي طريق «كيريتوشي» المزدحم بالمارة، وأخذ طريق «موئنزاكا» الموحش. وأن أفضل خطة هي أن نجعل «أوكادا» يحمل الإوزة داخل معطفه، ونسير نحن الاثنين على يمينه ويساره، ونعمل على إخفاء جسده .

حمل «أوكادا» الإوزة وهو يبتسم ابتسامة مريرة. مهما حاول أن يجرب حملها كانت تخرج ريشتان أو ثلاث من تحت طرف المعطف. بالإضافة إلى أن طرف ذلك المعطف كان يمتد بشكل غير طبيعي، مما يجعل هيئة «أوكادا» تظهره وكأنه مخروط. كان يجب علينا أنا و«إيشيهارا» أن نخفي ذلك عن أعين الناس .

الفصل الرابع والعشرون

قال «إيشيهارا »:

ـ نسير بهذا الشكل .

وبدآ السير معي جاعلين «أوكادا» في المنتصف. ما كنا نفكر فيه نحن الثلاثة هو نقطة الشرطة الواقعة في تقاطع الطريق أسفل منحدر «موئنزاكا». بدأ «إيشيهارا» في الحديث والشرح بنشاط عما أسماه معلومات ومعارف تفيد عند تخطينا هذه الطريق. وفي حدود ما سمعت منه، قال :

ـ يجب ألا يتحرك القلب. إذا تحرك فهذا معناه حدوث ثغرة فيه، وإذا تولدت ثغرة فسيتم اقتحامها .

وذكر «إيشيهارا» المثال القائل : «إن النمر لا يأكل الشخص السكران». وأعتقد أنه كان يكرر ما سمعه من مدربه في رياضة الجودو كما هو .

وعندها قال «أوكادا» ساخرًا :

ـ لو فكرنا بهذا الشكل فهذا يعني أن الشرطي هو النمر ونحن الثلاثة نقوم بدور السكران .

صرخ «إيشيهارا» باللغة الألمانية قائلًا :

ـ سكوت !

وذلك لأننا كنا قد اقتربنا من الركن الذي يتم عنده الانعطاف في اتجاه منحدر «موئنزاكا».

بعد الانعطاف عند الركن، كان يوجد في ذلك الوقت عربة جر أمتعة وأشياء أخرى في الحارة التي تقع البركة مباشرة خلف البيوت المحاذية لها من حي «ماتشيا» وحي «كاياتشو». ومن هذا الركن رأينا بالفعل الشرطي الذي يقف في تقاطع الطريق.

«إيشيهارا» الذي يمشي جاراً «أوكادا» من جانبه الأيسر وجه كلامه فجأة لـ«أوكادا» قائلاً:

ـ هل تعلم المعادلة الرياضية التي نحسب بها حجم المخروط؟ ماذا؟ لا تعرف؟ إنه أمر في منتهى السهولة. فهو ثلث حاصل ضرب مساحة القاعدة في الارتفاع، ولذا لو كانت قاعدة المخروط عبارة عن دائرة، يتم حساب الحجم عن طريق المعادلة التالية: ح =

1

ـــ

3

ع × ط × نق 2. لو كنت تحفظ أن ط = 3.1416، تستطيع بسهولة حسابها. أنا أحفظ قيمة ط حتى ثمانية أرقام بعد العلامة العشرية. أي أن ط = 3.14159265 وفي الواقع ما بعد الثمانية أرقام ليس لها أهمية .

أثناء هذا الحديث كنا نحن الثلاثة قد تخطينا تقاطع الطريق. كان الشرطي يقف أمام نقطة الشرطة في الجانب الأيسر من الطريق الذي مررنا به، ينظر إلى عربات «الريكشا» التي يجرها الرجال والمتجهة ناحية حي «نيزو»، وفقط ألقى نظرة سريعة بلا أي معنى علينا نحن الثلاثة .

قلت لـ«إيشيهارا »:

ـ ما الذي جعلك تبدأ في حساب حجم المخروط هذا، ماذا حدث؟

في ذلك الوقت نفسه كانت عيناي تقعان على داخل منحدر الطريق، فاكتشفت وجود امرأة تنظر ناحيتنا، وأحسست أن قلبي تأثر بهزة مفاجئة من نوع غير معتاد. وأثناء عودتنا في الطريق الذي يمر بالحافة الشمالية للبركة، كنت أفكر في تلك المرأة أكثر من تفكيري في الشرطي الواقف أمام نقطة الشرطة. لا أعرف السبب ولكنني كنت أرى أن المرأة كانت تنتظر مجيء «أوكادا». وفي النهاية أعتقد أن ظني هذا لم يخدعني. فقد تحركت ناحيتنا بمقدار منزلين أو ثلاثة منازل من منزلها .

نظرت وأنا أحرص على ألا ألفت نظر «إيشيهارا» للأمر، وأخذت أنظر إلى وجه المرأة ثم وجه «أوكادا» بالتبادل. وجه «أوكادا» الذي يصطبغ

دائمًا بلون وردي خفيف للغاية، كان بشكل مؤكد قد ازداد حمرة. ثم وكأنها مصادفة حاول أن يظهر كأنه يُعدل من قبعته، فوضع يده على طرف القبعة الأمامي. كان وجه المرأة متحجرًا كأنه جلمود من الصخر. ثم بدت عيناها الجميلتان المفتوحتان على وسعيهما، كأنهما تحتويان في أعماقهما على حرمان لا حدود له .

وقتها كان رد «إيشيهارا» على سؤالي، مجرد صدى كلمات لمس أذنيَّ فقط، ولم يصل معناها إلى عقلي. ربما يكون على الأرجح دافع عن نفسه شارحًا أنه وصل إليها بسبب أن معطف «أوكادا» كان منتفخًا من أسفل فكان يشبه المخروط، ولذا ذكر موضوع حساب حجم المخروط .

على ما يبدو أن «إيشيهارا» قد شاهد المرأة، ولكنه لم يفكر في أكثر من مجرد أنها امرأة جميلة فقط. واصل «إيشيهارا» حديثه بلا انقطاع :

ـ لقد أسمعتكما شرحًا عن السر الأزلي، ولكن لأنكما بلا خبرة تدريبية ولأنه كان من المرجح أنكما لن تنجحا في تنفيذ ذلك في هذا الموقف العصيب، لذا قمت بعمل حيلة لكي أبعد عقليكما وأحولهما للتفكير في شيء آخر. وكان من الممكن أن يكون السؤال عن أي شيء، ولكن كما ذكرت منذ قليل لأن المخروط قد ذكر في حديثنا فتم اختياره رسميًّا. على أي حال كانت حيلتي جيدة، أليس كذلك؟ بفضل معادلة حساب حجم المخروط، استطعتما المرور من أمام شرطي الدورية مع الاحتفاظ بحالة عدم التكلف .

وصلنا نحن الثلاثة إلى جوار قصر «إيواساكي» وكنا على وشك الدوران حوله ناحية الشرق. ولأننا سندخل حارة ضيقة لا يمكن أن تسير فيها عربتا «ريكشا»، حيث إنها مخصصة لفرد واحد في الاتجاهين المعاكسين في الوقت نفسه، لذا يمكن القول إن الخطر انعدم تمامًا. انفصل «إيشيهارا» عن جنب «أوكادا»، وسار أمامنا وكأنه دليلنا في الطريق. حاولت أن أنظر إلى الخلف، ولكن المرأة كانت قد اختفت بالفعل عن الأنظار .

*

بقينا أنا و «أوكادا» تلك الليلة في مسكن «إيشيهارا» حتى وقت متأخر من الليل. ويمكن القول إننا كنا مجرد صحبة لـ«إيشيهارا» الذي ظل يشرب «الساكي» ويتخذ من لحم الإوزة «مَزَّة ». ولم يذكر «أوكادا» أي تلميح عن سفره لأوروبا، لذا كظمت رغبتي الشديدة في سؤاله عن العديد من الأمور، وأسلمت أذنيَّ للحديث المتبادل بين «إيشيهارا» و«أوكادا» حول تجاربهما في رياضة التجديف .

وعندما عدنا لـ«مسكن كاميجو»، لم أستطع التحدث مع «أوكادا» بسبب حالة الإرهاق والسكر، وفارقته وذهبت للنوم. وعندما عدت من الجامعة في اليوم التالي، كان قد غادر بالفعل ولم يكن موجودًا .

مثلما يقع حادث ضخم بسبب مسمار صغير، فكذلك من أجل أن ظهرت وجبة سمك الإسقمري المسلوق فوق صينية عشاء «مسكن

كاميجو»، لن يستطيع كل من «أوكادا» و«أوتاما» رؤية بعضهما البعض إلى الأبد. ليس هذا فقط، بل حدث أكثر من هذا، ولكن ذلك الأمر يقع خارج نطاق هذه القصة، قصة «الإوزة البرية ».

لقد كتبت هذه الحكاية، ولكن بعد حساب الأحداث على أصابع يديَّ، فقد مر عليها 35 عامًا. نصف هذه الأحداث شاهدته من خلال صداقتي الحميمة مع «أوكادا»، ولكن النصف الثاني، سمعته من «أوتاما» بعد أن تعرفت عليها بغير تخطيط مني، بعد رحيل «أوكادا». مثلما تضع صورتين يمنى ويسرى تحت عدسات منظار مجسم، فتظهران كصورة واحدة مجسمة، فقد كتبت هذه الحكاية بعد أن قارنت وكاملت ما شاهدته في الماضي مع ما سمعته بعد ذلك. ربما يسألني القارئ :

ـ كيف تعرفت على أوتاما؟ وفي أي مناسبة سمعت منها هذه القصة؟

ربما يهم القراء مثل هذه الأسئلة. وإجابتي عن ذلك، وكما ذكرت من قبل، إنه أمر يقع خارج نطاق هذه الرواية. ولكن من الأفضل ألا يتخيل القارئ أمورًا لا داعي لها، لأن امتلاكي لمقومات أن أكون حبيبًا لـ«أوتاما» هو أمر لا يحتمله المنطق .

(*) استمرت عادةٌ في اليابان حتى نهاية القرن التاسع عشر، وهي أن تصبغ المرأة أسنانها بلون أسود لتشير إلى أنها متزوجة أو حامل . (المترجم).

(**) آلة موسيقية وترية تشبه العود بها ثلاثة أوتار فقط، ويُعزف عليها

بريشة. (المترجم).

(***) هذا مثل ياباني يشجع على الزواج، مفاده أن الزواج يساعد في زيادة الدخل. (المترجم).

(****) ازدهر فن «الأوكيئه» في عصر إيدو (1603-1868) وهو عبارة عن رسم لوحة من مناظر الحياة اليومية على ورق شفاف، ثم نقشها على لوح خشبي من شجر الكرز، ثم طباعتها على الورق الياباني لتعليقها للزينة، وقد استخدمت هذه الطريقة لإنتاج كميات كبيرة من اللوحة نفسها. ويدخل ضمن هذا الفن رسم اللوحات اليدوية مباشرة، وهو المقصود هنا .

(*****) يشير المؤلف هنا إلى مثل ياباني شهير يقول: إن الأبطال العظام محبون للهو مع النساء. (المترجم).

(******) مثل يشير إلى دهشة كبرى، وهو يأتي من الأساطير اليابانية القديمة التي تؤمن أن حيوانات مثل الثعلب والغرير الياباني لها القدرة على التحول إلى شكل بشري لخداع الإنسان أو السخرية منه. (المترجم).

(*******) حلوى يابانية تُصنع من الجراد أو القواقع من خلال سلقها بعد تجفيفها مع السكر وصوص الصويا .

(********) حكواتي يرتدي ملابس تقليدية يابانية ويجلس فوق وسادة

مربعة على المسرح ويحكي للجمهور حكايات ذات مغزى وإن كان لا بد أن تجلب للسامعين المتعة والضحك. (المترجم).

(********) منطقة شمالي-شرقي طوكيو كانت تمتلئ بالمسارح والمطاعم والملاهي. (المترجم).

(********) طبق أرز مسلوق يوضع عليه حساء بطعم الشاي الأخضر. (المترجم).

(********) «سانجياو» كلمة باللغة الصينية تُشير إلى مفهوم في الطب الصيني التقليدي عن وجود أعضاء في الجسم لها حركة وتأثير وليس لها هيئة، ويعبر عنه حديثًا بـ«الجهاز اللمفاوي». و«تشاو» هو النطق الصيني لها من وجهة نظر يابانية. (المترجم).